

مدغاسن، قصص سرّية

مدغاسن، قصص سرّية

طاهر حليسي

احميذة عياشي

صورة : قيس جيلالي

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2019.

10، نهج إبراهيم غرافة، باب الواد، الجزائر.

www.chihab.com

الهاتف : 021 53 54 97 / الفاكس : 021 97 51 91

ردمك : 9-365-39-9947-978

الإيداع القانوني : أكتوبر 2019.

أنجز طبعه في أكتوبر 2019

على مطابع ع. قرفي - باتنة - الجزائر

قبر الخالدين

طاهر حليسي

ينحدر جدّي « بيلكا » من أب ماسيلي وأمّ ماسيسيلية، ولقوّته وشجاعته انخرط صغيرا في خيّالة نوميديا، فكان جنديا في فيلق يوغرطة المرابط في شبه الجزيرة الإيبيرية، ثم قائدا من قادة جيوشه في الحرب التي شنها سليل العرش النوميدي ضد روما، بيد أنه اعتزل معترك الحياة بعد خيانة باخوسا، وفضل العيش متخفيا من مكان إلى آخر حتى استقر به المقام قرب مقبرة متاريس حيث ترقد أجداد أجداد المملكة الغابرة. لقد أحصاها قبرا قبرا وحوّطها بالحجارة المجلوبة من جبل تينزواغ القريب، وشيّد قربها « شوشة¹ » يتخذها سكنا خلال الشتاء القارس، وبنى « دولمن² » يبيت تحته صيفا، وكان قد خبا سيفه النوميدي المصقول وسترته المصنوعة من جلد الماعز المجفف ودرعه في حفرة، وصنع له نايًا من قصب الذرة وراح يعزف « لحن السرمديين » الذي كان النوميديون العاملون في الجيش الروماني يغنونه كلما شدهم

1. الشوشات هي عبارة عن قبور بربرية قديمة، تواجدت قبل الإسلام في شمال إفريقيا، وهي دائرية تشبه الأبراج أو القلاع، يبلغ علوّها ما بين مترين إلى 3 أمتار وقطرها ما بين 3 و 5 أمتار.

2. الدولمن، وتسمى أيضا بالمناطر، وهي طاولات حجرية ضخمة مكونة من الصخور الصوانية الكبيرة، وهي تشكّل ما يشبه الغرف الصغيرة.

الحنين لمملكتهم الغائبة أو الشوق لحياة جديدة، حتى استطاع بتجواله أن يجمع حول ألحانه عددا من قدامى النوميدي وأسس قبيلة جديدة ارتضت أن تصنع كرسيا يخلّد بقاء الهيلمان النوميدي... تقول الأسطورة أن بيلكا صاحب الرؤى والأحلام رأى في منامه قائده يوغرطة يضرب بعصاه الأرض ويصيح فيه : « انهض واطرد الكرى من براثن الأحياء واصنع مجدا جديدا لنوميديا وحكما من صلب الموت ».

ولم يجد لرؤاه تفسيراً حتى قرر السفر نحو دير الكاهن أباليا، وكان شيخا طاعنا في السن قصير القامة مقوس الظهر، ذا وجه دائري ولحية بيضاء تكاد تلامس أديم الأرض، يقيم في مغارة جبل تيمسكال، وحين التقاه قدّم له قربانا ثمينا رأى أنه جدير بمقامه الروحي الرفيع، وكان القربان سيفه الصقيل ودرعه، فأدرك أباليا نبلة وأثنى عليه، غير أنه رد الهدية مبتسما :

— لا يحتاج شيخ كبير مثلي سوى حبات من التين الأسود التي قطفتها من بستان في طريقك إليّ... ألا ترى أنني انتظرت قدومك منذ أيام ؟

ذهل بيلكا من حدس الشيخ وعرافته المتأصلة في الغيب، فجثا على ركبتيه يحاول تقبيل كتفه اليسرى، لكن الشيخ أشار له بالوقوف قائلا :

— أحقا كنت فارسا في خيالة الإقليد يوغرطة الذاهب ملكه إلى بوار ؟

أدرك الجاثي مقصده فأردف :

— لم أنحن سوى احتراما لقداستك الموغلة يا أبت. لقد رأيت فيك وهجا من ريح أبينا بونا القرمنتي.

لمح في عين الشيخ شعاع أوحى له بحنين جارف نحو ماض غابر، ووقف في تودة من فوق صخرة ميغالييتية قديمة، ثم همس متحسرا :

— كان الأب بونا رجلا عادلا وشجاعا وصاحب مُثُل عليا، لكنه لم يفلح بجيش القرويين في مقارعة روما، كُرس حياته من أجل مثال جديد لكنه انهزم أمام الأمر الواقع ؛ لا لأن مثاله كان وضيعا بل لأنه لم يكن قويا. الحق يتيم دون القوة، لذا لم تقدر تلك الميليشيا أن تفرض عقيدته الجديدة والعدالة بين البشر، فلا يزال القوي طاغيا بقوته والضعيف منهزما بضعفه.

عَقَب بيلكا متأففا :

— أحسست بما تقول لأنني عانيت من خيانة باخوسا لسيدنا يوغرطة.

نهض من جثوته فربّت العرّاف على كتفه وقال :

— لا شك أنك قصدتني فيما رأيت.

فهمّ أن يروي له لكنه أشار عليه بالسكوت وعَقَب :

— رأيت في منامي أن شخصا من بقايا النوميدي سيحيي إليّ ليسألني تفسير رؤياه العجيبة.

أوما بيلكا موافقا بحركة من رأسه فواصل الشيخ فتواه :

— حسنا... سر عدة فراسخ من مهجعك باتجاه الشرق، تتبّع خيوط الشمس المتدفقة خلف الروابي والجبال، ثمّة هيكل عظيم بناه جدنا الأكبر مدغوسا، در عليه سبع مرات ثم تفحص قامته الرفيعة وقاعدته العريضة، ثم استعن بنجارين عظام من مدينة تيمقاد العامرة، ثم ابن كرسيا عظيما من خشب الأرز، واجعل فيه بعضا من عظام أجدادك ليتذكر اللاحقون بأن لنا في الموت حياة.

شعر بيلكا بفرح غامر بتلك البشارة، لكنه استشكل أمرا فقال :

— كيف لي أن أصنع مساند برفات أجدادنا العظام ؟

قاطعہ الشيخ بلهجة حازمة :

— لا تناقش الرؤى والأحلام فهي ليست سوى أمر صادر من أرواح
أجدادنا العظام.

وحينما همّ منصرفا بعدما ناوله حبات التين الأسود من جرابه،
تبعه بالقول :

— أنجز الكرسي وامنح سيفك وترسك لمن هو أهل لحمل الأمانة.
استيقظ بيلكا ذات صباح مرتعشا من الرؤيا التي توهجت
في عمق سباته العميق، نهض مذعورا ثم أحس بعد لأي بسرور خافت،
فأسرع يرتدي معطفه المنسوج من وبر الماعز، وسباطه المصنوع من
جوخ الذئب. ملأ رحله بكسرة من الخبز وحبات التين، ثم نزل يغسل
وجهه في ساقية، وحينما ارتوى ملأ قربته الصغيرة ففاحت منها رائحة
القطران المعطر.

سار صوب الشرق بين التلال والهضاب ونشوة رقيقة تغمره حتى
تخيّل أنه صار كتلة متوهجة مثل الشمس التي راحت تبزغ على
استحياء من خدرها الأحمر بين الجبال البعيدة. وفي الطريق عثر على
مدينة رومانية تعيش بها أقوام غابرة، وما رأوه حتى خرجوا يتأملون
سحنته الغريبة، وقد كانوا يعتقدون قبل أن يروا جثته الضخمة ولباسه
أنّ الأرض كانت مقفرة، ثم ما لبث أن حيّاهم بلهجة ماسيلية صرفة،
فصاح أحدهم وكان يحمل عصا غليظة :

— هيا ! لا تخشوا شيئا ؛ إنه واحد منا فهو يتحدث لغتنا.

سرّه ما سمع فأخرج شيئا من كسرة الخبز ومنحها لغريمه الذي
عاد وصاح :

— يا إلهي ! إنه يأكل مثل ما نأكل !

خرج كهل في حلة بديعة، يصحبه شابان قويان يحملان سيفين صقيلين في غمدين براقين، فاقترب منه وسلم عليه ثم قال :

— مرحبا بك في عشيرة الجيتول.

تعجّب بيلكا وردّ مغتبطا وهو يقبل يد الشيخ الذي أكبر فيه نبلة :

— الجيتول جزء من أهلنا الذين ضاعت بهم السبل منذ سنين.

اصطحبه شيخ القبيلة تحت شجرة وضعت تحتها مصطبة حجرية قديمة وبها ما يشبه الخريطة، وحينما التفت رأى عشرات الدور الحجرية، ومصرة زيت زيتون قديمة، ونساء يغسلن أطفالهن العرايا في قدور كبيرة، وشبابا يلعبون لعبة « الكرود » بقطع حجرية، فشده المنظر المشع سكيئة وسلاما، فسأل :

— منذ متى وأنتم هنا ؟

رد الشيخ في هدوء :

— منذ فرّ والدي من الخدمة العسكرية الرومانية، كان ذلك منذ زمن بعيد، ولدت هنا قبل خمسين سنة.

صاح بيلكا متعجبا :

— غريب ! كيف لم نلتق من ذي قبل طوال السنوات الماضية ؟!

قال الشيخ أمونزا (وكان ذاك اسمه) :

— من لا يمشي لا يعثر على الطريق. الحياة تحتاج جرأة المغامرين ولا تحفل بالثابتين في الموضوع !

غمغم بيلكا موافقا بعد أن قدّر أن « الحلم اليوغرطي » الذي كان يراوده في النوم كان ربما يدفعه لاكتشاف نبوءة الطريق، وما كاد يسرح قليلا حتى بادره الشيخ :

— وأنت من أين جئت وإلى أين أنت ذاهب ؟

— جئت من تينزواغ حيث تقيم عشيرتي وراحل نحو قبر مدغوسا.

همس له أمونزا محتفيا :

— أنت ذاهب إلى هنا (وأشار بأصبعه إلى الخريطة المرسومة بلون

أسود فوق جلد ذئب جاف).

فحص بيلكا الخريطة فرأى هيكلا عظيما من الحجر الأحمر،
فانعقد لسانه دهشة وفاضت عيناه بشعاع روحي ألقى في خابيته
شهقة غريبة وهو يعاين البناء الهرمي ذا القاعدة العريضة والقمة
المخروطية الشامخة، فتمتم :

— يا له من بناء عظيم ! لم أكن أعرفه.

رد الشيخ مغتبطا :

— إنه لجَدْنَا الأكبر مدغوسا الذي تملك الربوع في أزمان غابرة.

ثم تنهد وهو يرى بيلكا يمسح جلد الذئب براحته كأنما يفرك خرقة
سحرية، فأضاف :

— كي تقضي وطرا عليك أن تكتشف الطريق، وكي تسلك الطريق

عليك بخريطة. الخريطة هي الطريق !

سأله بيلكا عن مغزى الحديث فأجابه :

— أرايت تلك الدوائر الحمراء المنتشرة فوق الرقعة ؟ إنها للأقوام

والعشائر التي تفرقت مثل حبات العقد، سأضيف دائرة عشيرتك
ليكون الإحصاء دقيقا. إن هدي الذي أعيش لأجله هو حلم والدي
في أن تلتئم القبائل النوميديّة في كيان يعيد تلك المملكة فوق سطح
الأرض بدل العيش في ظل الأقوام الغازية أو تحت تراب الحفر.

فرك بيلكا رأسه ثم ألقى نظرتة في الأفاق البعيدة مستذكرا حلقات

ذكرياته المجيدة، فتلمّس جيده وتحسس سلسلة عقده ثم قال :

- سأبذل قصارى جهدي لأكون جامع الفصوص النوميديّة.
- قدم له الشيخ كتلة سوداء ثم مد يده وנתف شعرة من صدره العاري فتألم بيلكا ثم صاح :
- لن يستطيع سيف حاد أن يجز هذه الكومة الملتحمة رغم أنها شعر هش، لكن الفتيلة المنفردة تتلاشى بين قوة أصبعي الفتى الغرير.
- رفعت المائدة فوقف الرجلان، ونفض بيلكا ثيابه وعدل هندامه وقال :
- ممتن لك يا أبّ بما أوليتني من كريم الضيافة والعناية، سأنتقل نحو الهيكل عساني أعود قبل الليل.
- أشار له الشيخ براحة يده :
- ترافقك أرواح الأجداد، وهذا التيس الأسود المربوط تحت الشجرة.
- انحنى بيلكا برأسه، غير أن الشيخ وضع يده على كتفه اليمنى وهمس له :
- ليكون التيس أمامك لا خلفك.
- ظن بيلكا أن التيس قربان تبرع به الشيخ لينحره عند طود الحجر المقدس، فسار ملوّحا بيده على أمل أن يعود إليه في مرة قادمة. انطلق ينهب الأرض نهبا خلف التيس الأسود كما لو أنه يتتبع خطى بشر عاقل، وكان كلما سبقه قليلا توقف حتى يلحق به، أو يتتبع صوت الجرس الفضي المعلق في رقبتة، وحينما نزلا من جبل تفودة المرتفع بدت له سبخة واسعة فمشى في أرجائها مدركا أنها أرض مستوية، وما كاد يقطع سفح جبل صخري أصلع حتى برز له جبلان وبينهما قمة حجرية أخذت تتكشف شيئا فشيئا حتى بان له الهرم الشامخ، وقبل أن يلحق بالتيس سمع زئير أسد يمزق السكون المخادع الذي

استقر في كيانه منذ فجر ذلك اليوم البهيج، فتراجع خطوات للوراء كمن يبحث عن حجر أو أداة يجابه بها ذلك الوحش الكاسر، فلم يعثر سوى على خيبة في تلك الأرض الجرداء، ولم يبطئ الأسد الأطلسي الجائع في أن ينقض على التيس ويغرز فكه بين أنيابه التي خرمت رقبته، ثم هوى عليه بقوائمه فطرحه أرضاً، ثم أخذ ينهشه نهشاً فصار جيفة، وحينما اكتفى من جوعته استدار نحو الرجل الأعزل ثم زار زارة مرعبة وانطلق عادياً يثير الغبار ثم اختفى تحت الأشجار في الأكمة، فأدرك بحدسه أن التيس الذي أرسله صاحبه معه لم يكن قربانا للهيكل بل قربانا لروحه من أسود الجبال الخضراء الصفيحة.

وحينما دلف للهيكل طاف به سبع دورات كاملة، ثم تقدم من دهليز وجثا على ركبته وأخذ يتمتم: « ها أنذا أنفذ وصية أرواح الأجداد ». دنا يتأمل تلك الكتلة الصماء فتقدم نحوها ووضع أذنه على صخرة كمن يستمع لروح أسلافه التي غمرته بعد جفاء طويل، انبعثت في نفسه مشاعر مفعمة أغرقت روحه في بدنه الذي ارتعشت فرائصه، ثم بكى مثل طفل يتيم عثر على والده بعد طول غياب، وحثه البكاء أن يتجاوز روحه المعدمة فاستحال إلى فارس صاحب رسالة وهو يتلقى نبوءة الحياة من عظمة تلك البناية الشاهقة التي منحته الإحساس بانتصار الماضي على جراح التيه، وغرق في نوبة صمت طويلة كانت له بمثابة ميلاد فجر جديد.

كاد نعيق الغربان، التي هوت على جيفة التيس تلخ في دمه وتآكل بقاياها التي تركها الأسد الشبعان، أن يفسد عليه خلوته الروحية، فدخل في الردهة المفتوحة وسط الهيكل ومد خطواته في دهليز مظلم حتى انتهى إلى داخل غرفة ألقى فيها شعاع الشمس بخيط مبهر بدد الحلكة واستقر في بؤرة نورانية، فشعر كما لو أنه يتلقى وحيا سماويا ونبوءة روحية.

نام مثل طفل في موضع النور يغتسل من ظلمة الروح ويتطهر من خيبة باخوسا، وغشاه نعاس طفيف أغفله في نومة طفيفة قبل أن يبرد جسمه بعد أن انحسرت الشمس قليلا أو ظللتها غمامة كبيرة، فخرج من القبر كأنما يولد شخص جديد بين برائن جسمه العتيق. عاد يطوف حول القبر الجاثم فوق سطح الأرض وتفحص مسنده الخشبي المصنوع من أرز جبل الشلعلع، ثم حجارته الضخمة ؛ فاحترار كيف أن أجداده العباقرة تمكنوا في زمن سبق زمانه من أن يحركوا الجبال وينحتوا منها صخورا مقطعة تقطيعا دقيقا، ثم عثر على قطع رخامية إغريقية، ثم على رمز رأس أفعى فرعونية سوداء تزين مدخل السرداب الأوسط، ثم وهو يتسلق القمة وقعت عينه على تاج برونزي يزين رأس القبر المخروطي.

في طريق العودة والشفق يظلل الجبال بدا له عالمه جميلا بديعا، فلم يسبق أن شعر بامتلاء صدره بالنسيم العليل القادم برائحة الشيخ والعراعر والسنوبر، فاستنشق بعمق من يريد أن ييث في ذاته هواء معطرا بلون الأرض والشجر والنبات الأخضر المتراقص فوق القمم تحت عزف رياح المساء البحرية المنعشة القادمة من بحيرة الجندي. لم يخالجه إحساس مثل الذي أحس حينما دخل القبر جثة قديمة وخرج منه كيانا جديدا، ثم إنه راح يستنبط الحكم النورانية من ذلك الحلم اليوغرطي فأدرك حقا أن « الحياة ناموس يخرج من هيكल الأموات » وأن « أجداده العظام يعشقون الموت مثل الحجر فوق الأرض المصقول تحت الشمس، ولا ينتهون رميما وغبارا تحت أديم الأرض وظل التراب ».

انجست له الرؤيا أخيرا ففهم النداء الخافت الذي التقفه من سباته العميق ذات ليلة « انهض، انهض واطرد الكرى واصنع مجدا جديدا لنوميديا وحكما من صلب الموت ».

قال وهو يرقص على زخات مطر صيفي عابر وسط غابة الظلال :
« هذا ليس قبرا بل قصر للملك. هذا ليس جدث أموات بل مهد
للأحياء ».

وقرر أن يصنع كرسيًا عظيمًا على شاكلة الهرم. لن يكون معلما
جنازيا بل بابا من أبواب الشمس، وثلما نحو إشراقة الغد ؛ والغد يبدأ
في صباح كل يوم جديد.

ظلال مدغاسن

احميدة عياشي

أحببت المسرح منذ صغري وكنت أريد أن أصبح ممثلاً مشهوراً، لكن أبي كان يعترض أن أغدو مهرجاً في فرقة تمثيل، وقال لأمي عندما رفض التحاقني بفرقة المدينة : « هذا ما خاص »، بلعت غضبي ولم أقل شيئاً. وعندما تحصلت على البكالوريا، فرع رياضيات - جيد جيداً - منحتني الحكومة منحة دراسية إلى الاتحاد السوفياتي قبل التفكك، وكانت فرحة أبي وأمي كبيرة، وأوصتني أمي بعدم الاختلاط بالروسيات لأنهن كافرات، وقال لي أبي وهو يودّعني في مطار الباي : « كن رجلاً » ثم وضع قبلة على خدي وراى فوق رأسنا الصمت وتوجهت دافع العينين نحو صالة الإقلاع، وعندما عدت في إحدى العطل أظهر أبي الكثير من الفخر بي وأمي كذلك... وأتخيل أني سمعته يقول لأحد أصدقائه القدامى أن ابنه - أي أنا - لم يزغ عن الصراط المستقيم ولم يصبح شيوعياً، خاصة لما رافقته ذات جمعة إلى الجامع... فماذا لو علم أني صرت أشرب الفودكا مثل الروس المجانين وأنني تزوجت أنا البولونية الأصل..

كنت أحب أبي ولهذا كنت شديد الحرص على عدم إيذائه بأي شكل وتجنب جرح مشاعره، وأخبرت شقيقتي رشيدة أني تزوجت

بولونية في غاية الجمال ؛ فلطمت خدها وعضت على شفتيها، وخاصة السفلى منهما حتى أدمتها...

هي : هل جننت ؟

أنا : أحببتها يا رشيدة...

هي : لقد قررت أُمي تزويجك حورية بنت خالي محمد !

أنا : آنا أحبها وهي تحبني...

وذات مساء، كانت أُمي تجلس لوحدها في الحوش، وقررت مواجهتها بالحقيقة ؛ كادت تصعق... لطمت هي الأخرى خدها ثم صمتت ولم تقل شيئاً. عذبني صمتها ونظرتها الغامضة المليئة باللوم الحزين... أفهمتنى نظرتها أنها تشعر بالخجل، وكذلك أفهمتها أُنّي أشعر بالخجل من نظرتها اللوامة، وكنت حزينا لحزنها، لكنني قلت لها أن آنا امرأة طيبة ورائعة، وهي ليست كافرة مثلما يظنون، بل مؤمنة وقلبها عامر بالطيبة...

نظرت أُمي إليّ مليا وظلت صامتة. وفي تلك الليلة غمرني حلم غامض وغريب بللني بالدهشة ؛ رأيّتي أحمل كلبا مزرقطا، وكان يقول لي أنه من سلالة مقدسة، ورأيّتي أجري في طريق بومية، وكان ضريح عظيم شبيه بضريح مدغاسن يثم فوق صدري، ورأيّني محاطا بالأهرام عن شمالي ويميني، وكنت أشعر بأنفاسي تكاد تخمد بينما كانت آنا تنظر إلي وهي ترقص على الجليد في الساحة الحمراء، ورأيّت أبي يجلس مثل الرجل الأسطوري فوق صخرة صماء شامخة وهو ينظر إليّ من عل، بينما كنت مجرد نقطة تشبه حبة تراب في زمن الشتاء البارد، وكانت الروسيات الشقراوات يضحكن بصخب، عيونهن الزرقاء تشبه بركة ماء أغطس فيها رفقة آنا، وكان طفل وطفلة يشعان بجمال نابض وبريئ ينفذان إلى جسد آنا وجسدي وهما يتضرعان إلى الله

وكأن غولا يريد أن ينهش جسدينا، ثم اختفى كل شيء من حولي وتحول مثل شاشة في غرفة سوداء، وانبثق طريق طويل مليء بشهوة الروح والجسد وعامر برغبة جامحة انتقلت إليّ مثل قوة مغناطيسية ظلت تدفع بي باتجاه أفق بعيد كان يبدو في أعماقه الشاهقة مبنى أسطوريا متعاليا (معبد مدغاسن؟!).

كان يبدو لي مثل شرارة نار مقدسة، وكانت أمني تقف وراءه وهي تشير إليّ، وأنا أخطب تلك الشرارة الإلهية الصاعدة إلى السماء (من تكونين؟!) كانت الشرارة تنطوي على وجه يتداخل فيه البشري بالرباني، الأصيل بالهجين، النور بالظلام، الجسد بالروح، الحقيقة بالخيال، الظاهر بالباطن، العقلي بالغبي، الكلام بالصمت، كنت أنا يتجلى في هو، ذلك الجسد المنحوت بالتراب والحجارة...

وحدي في ذلك الفراغ المطلق، أطيّر إلى أعلى نقطة في تلك السماء الحمراء، وجدّنتي محاصرا بوجوه ذات ملامح جهنمية، كانت تقترب مني والشرر الأخضر يتطاير من عيونها، وكنت أصرخ من أعماقي لكن من ذا الذي يسمعني... يسمع هوفي وحيرتي؟ كانت أنا تبدو حيننا وتختفي أحيانا، بدت مثل طيف زائف، خادع، سراي ومضلل، لكن ذلك الرجل كان يقترب بهدوء، يمشي بخطى واثقة يحمل على رأسه تاج ملك شجاع باسم وجذاب المحيّا، تمنّيته لو كان رغبة تسكن جسدي الملهته بالحيرة، صاح في وجهي أن تعال ولا تهب، هتفت بيني وبين نفسي : « أنا قشعريرة تسري في عروق التراب الندي » كنت قشعريرة تجري، قشعريرة تركض، لم أكن وحدي ؛ أمة بأسرها تركض، الأرجل تنهب التراب والأسفلت، كان العرق حارا، أشرب الماء لأروي عطشي، يقف البشر مثل نقاط في أرض عارية يصفقون. كان المنظر يشبه السباق العظيم الذي تخوضه الآلهة الطريفة والأرباب الشريفة في أزمنة هلامية. شخص ما كان يقف على ظهر عربة وهو يوجه

الكاميرا نحوي، كأني سمعته يقول : « تشجع يا بطل لم يبق سوى كيلومتر واحد وتصل إليه، هو في انتظارك، مدغاسن... الملك مدغاسن ينتظرك، فاجر حتى النهاية، حتى السقوط أرضا... حتى النهاية يا بطل... ».

وصوت آخر كان يهمس في أذني : « الجري حرية، الجري قوة، الجري عشق، وحدان، أغنية في وادي الخلود » التفت، كان هو ذاك الذي كان يجري بحنبي وهو يحمل تاجه على رأسه...

— كيف تكون هناك وهنا يا مدغاسن ؟

— لأنك خطوة باتجاه العلامة، لأنك علامة.

— أنا علامة ؟!

— كل من يقترب مني، يبحث عن علامتي في علامتي يكون علامة، يكون طريقا إلى الطريق، يكون خطوة تصب في خطوة...

— وذاك الطريق الذي يظهر ليختفي ويختفي ليظهر ؟!

— هو جسدك الذي يسكن بيتك، هو بيتك الذي يسكن وطنك، هو وطنك الذي يسكن جسدك الضائع في لهفة خطواتك وفي تيه جريك...

كنت أتقلب وأهذي وأصرخ بينما كان الصوت يتصاعد من قاع المنام الحالك : « لا تخف، افتح عينيك واجر حيث الضريح يقف شامخا ينتظر » فتحت عينا، كان الضوء يسطع من النافذة المطلة على الجبال الصامته وأصوات الأنهار الصادحة وهديل الحمام... كان مدغاسن يجلس قبالي وهو يتلو سورة ياسين. نهضت، كان أبي عن شمالي وأمي عن يميني. انسل مدغاسن مثل خيط رقيق، قال أبي : « اتبعه » فمشيت خلفه، لم يكن يلتفت خلفه، كان يمشي باتجاه الأمام يرتدي إزارا أبيض، ناديت عليه فلم يلتفت « هل أنا في حلم ؟! ما الذي يحدث لي ؟ هل هو توهم أم حقيقة ؟! ».

قالت أُمي عندما سألتها أن الحمى كادت تقضي عليّ لولا جارنا صاحب الإزار الأبيض الذي تلا سورة ياسين.. لم أفهم.. اختلطت في ذهني الصور والوجوه والكلمات.. تلك العطلة كانت مثل اللغز المدهش والغريب بالنسبة لي، وظلت أنا تحمق في وأنا أروي لها ما حدث لي مع ذلك الحلم الأسود..

— هل الضريح حقيقة أم خيال ؟

— إنّه حقيقة...

— ومدغاسن ؟

— يوجد داخل ذلك الضريح المغلق مثل سر مغلق.

(وصل..)

أخبرت أُمي شقيقها بكل شيء... عن زواجي بآنا وكذا وكذا... فقال لها : « لا عليك.. هذا الجيل هو هكذا.. » لكن في الحقيقة، خالي النذل الذي لم يكن يطيّقني شعر بالفرح لأنه كان لا يطيّقني ودائماً يشعرني بالقرف، لم يكن يملك ذرة من الشجاعة ليرفض لأُمي طلبها وهو زواجي من ابنته.

— مقرف.

غضبت أُمي وهي تقول : « صه، لا تقل عن خالك مثل هذا الكلام ». طبعاً كان ذلك منذ وقت طويل...

يملك خالي عشرات العقارات ورثها عن معمرين..

كان خالي حركياً فيما يذكر البعض، لكنه أصبح فيما بعد مجاهداً بعد الاستقلال، وكبار أهل البلدة يعرفون ذلك لكنهم لا يقولون الحقيقة... منافقون..

صار خالي نائبا لعهدتين يوم كان نظام الحزب الواحد، وبعد التعددية أصبح محافظا لعهدتين في حزب الأفلان. أيام الحرب الأهلية، أطلق عليه شاب من حي بوعقل رصاصتين، واحدة في الصدر والأخرى تلك التي أردته قتيلا في الرأس، وظل ملقى في العراء لساعات قبل أن تأتي القوات المسلحة المتخصصة في محاربة الإرهاب.

بكنه أمي، ثم لحقت به بعد وقت قصير على إثر مرض الكرون الذي تسبب لها في انسداد معوي ؛ بكأها أبي بكاء مرا، ثم مات هو أيضا (ربما حزنا عليها).

الموت ؟ كلنا سنموت... ذلك ما يبعث في نفسي شيئا غامضا من الأسى.

كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبي، غير بعيدة جدا في الذاكرة، حيث رحنا في زيارة إلى عمي المريض بقرية بومية، كان المطر يتساقط... تساقط بغزارة، وأثناء عودتنا إلى حيّنا وسط باتنة تذكرت ذلك الحلم الراقد في سراديبى، وخيل إليّ أن ظلا ما كان يتعقبنا، ظلا عظيما لم يُرد مفارقتنا، وكان أبي وهو يتحدث إليّ يلتفت إليّ وهو يقول :

— ما بك ؟

— لا شيء...

— تبدو مرتبكا.

— لا أبدا...

فعلا كنت مرتبكا، وكدت مرتين تحت تلك الأمطار أن أنحرف لأنني كنت أراه يتعقبني، شبح مدغاسن، لم يكن إلا هو... لم يحدث شيء في النهاية، لكن في تلك الليلة رأيت نفس الحلم يتكرر من جديد وبشيء من التعديل. أخبرت أنا ونحن نتناول الفودكا في أحد المطاعم في قلب موسكو، فنصحتني بالذهاب وإياها إلى صديقتها وهي طبيبة

في التحليل النفسي. لم أقل لها شيئا، لكن عيادة الأطباء النفسانيين كانت تصيني بالرهاب.

فائدة :

إمدغاسن، أو مادغيس هو ضريح أمازيغي نوميدي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد، يقع في الأوراس على أراضي قرية بومية في ولاية باتنة، وهو عبارة عن قبة عملاقة يحيط بها تاج العمود بأسلوب درويسي.

(وصل..)

قضى والدي أربع سنوات في الجبل، أي إلى غاية الاستقلال، وعندما أسأله لماذا لم تصبح ثريا مثل خالي يقول أنه « جاهد في سبيل الله »، كلام غير مقنع وأحيانا كنت أجده فارغا. وكان أبي يغضب على مثل هذا الكلام ؛ لا يريد أبي التحدث كثيرا ولا قليلا عن الثورة، بينما كان خالي يتحدث عن الثورة في كل مناسبة وفي غير مناسبة.

الأوراس قلب الثورة، لكن أيضا - مثلما كان يقول سيدي الشيخ وهو أستاذي في مادة التاريخ لما كنت بالثانوية - قلب الخيانة.

لم يكن أبي يحب خالي، أعرف ذلك، أقرأ ذلك في عينيه، وكان يعرف تاريخ خالي من الألف إلى الياء، لكنه لم يكن يبغى إيذاء أُمي لأنه في النهاية كان يحبها.

متأكد، أبي كان يعرف كل صغيرة وكبيرة عن خالي، ومع ذلك كان يقول : « كل واحد وضميره، كل واحد وشأنه ». لم يفتح أبي يوما فمه ولم يفه بكلمة عن خالي، أما خالي فقال أشياء كثيرة عن أبي كما أتخيل. لما انتهت الحرب، نزل أبي من الجبل ورفض الانضمام إلى الجيش واختار أن يواصل دراسته ليصبح معلما ثم أستاذا في المتوسط. حرصته

على كتابة مذكراته لكنه مات ولم يكتب حرفا. لما شيدوا مسجدا كبيرا في حينّا طلب منه أهل الحي أن يقدّم دروسا، وبالفعل فعل وصار له مريدون كثيرون، وكان ينتقد الشيوعية والدول الشيوعية، ولكن اندهش الناس لما لم يحل أبي بيني وبين الذهاب إلى الاتحاد السوفياتي عندما منحتني الحكومة منحة دراسية، بل كان فرحا وممتنا لله وللحكومة... قال لي أبي وهو يودّعني في ذلك اليوم الذي رسب في أعماقي : « كن رجلا ». هل كان يقصد الحفاظ على ديني وصلاقي ؟ لم يكن أبي يعلم أنني توقفت عن أداء الصلاة وأن إيماني تعرض لاهتزاز عميق قبل توجهي إلى الاتحاد السوفياتي، وذلك لما كنت في الثانوية عندما تعرفت على ليلي التي كانت طالبة بجامعة قسنطينة، وكانت من الناشطات الشيوعيات في حزب الطليعة الاشتراكية، كانت تكبرني بأربع سنوات، أخذتني معها لأول مرة في حياتي إلى عناية، كانت تدعى ليلي، ذات جسد ذكوري وجمال جذاب، تدخن بشراهة وتشرب النبيذ الأحمر في المناسبات الليلية. كانت ليلي حبي الأول الذي أضرم النار في غاباتي. تخلت عني ليلي في بداية علاقتنا، وكدت أصاب بلوثة. لم تكن تربطنا علاقة دائمة، لكنني كنت مشدودا إليها كالمجنون، ومرة فكرت بطعنها بموسى عندما اتخذت عشيقا جديدا وتظاهرت كأنها لم تعش معي تلك اللحظات التي لا تُنسى.. اكتشفت أنني أصبحت خطرا على حياتها فحاولت أن تعيدني إلى رشدي، ثم قالت لي في آخر يوم رأيتها : « يجب أن تفهم أنني لن أكون لك، أنت شاب وفي مستقبل العمر والمستقبل أمامك لتصنع حياتك وحبك الحقيقي والدائم ».

كل هذه الخواطر راحت تتهاطل في سمائي وبداخلي غزيرة وبشكل متسارع عندما عدت إلى بلدي، طبعا كان والدي قد مات كما ذكرت، ووالدي لم تعد من هذا العالم بل حتى خالي رحل، ورحل الكثير ممن كنت أعرفهم والذين لا أعرفهم من أهل الحي. أشياء كثيرة تغيرت

في نظرات الناس وعلائقهم وأسلوب تفكيرهم وتصرفهم... الكثير ممن كانوا مجرد أطفال صاروا فتيانا، لم يعد الناس يؤمنون بالمستقبل مثلما كنا، صاروا أكثر ارتيابا وحذرا بعد أن صدّق الكثير أننا سنصبح بلدا حرا وديموقراطيا ليفتح الجميع عيونهم على عالم لم يكن في الحسبان...
صارَت كل البلدة تتحدث عني وعن زوجتي أنا وطفلاي أمين وجنات. كانت أنا فرحة بوجودها في بلدي، كانت سعيدة وتقول لي أن أناس بلدي وأقاربي طيبون جدا، وبعد مرور ثلاثة أعوام راحت نظرتها تتغير تجاه أقاربي، وكانت تتحدث إليّ في صمت وهمس، ولم تكن تصدّق ما يحدث؛ كل يوم كانت الناس تقتل، واكتشفت أنها هي الأخرى باتت مهددة بالموت من الجهاديين كونها بولونية من روسيا. كانت تقول لي: « لماذا يريدون ذبحي؟ ألم أدخل الإسلام؟»، كنت عاجزا على الكلام، كنت ألوذ بالصمت، ليس لأنني كنت خائفا على حياتي، بل على حياة أنا وأمين وجنات. وذات يوم جابوا الشارع وطرقوا بشدة على الباب بينما اختفينا داخل السرداب الذي لم يكن يعلم مكانه القتلة، وفي تلك الليلة قتلوا عددا من أبناء البلدة واختطفوا ثلاث فتيات.

وذات يوم قلت لآنا: « لا بد أن نرحل » لم تقل شيئا، فتوجهنا إلى بيت والدتها التي كانت تحتضر.

هنا في بولندا وُلدت أنا قبل أن تنتقل إلى الاتحاد السوفياتي للدراسة، وبعد عام شعرتُ بالضيق، فقلت لآنا « انتهت الحرب في البلد، لا بد أن نرجع»، رفضت أنا أن تصغي إليّ، ثم عندما وعدتها أننا سنجد السعادة التي افتقدناها رفضت تصديقي، وقالت: « إن رغبت فارجع إلى بلدك، أما أنا وأمين وجنات فلن نرجع». بدت أنا مثل هر مفترس، أصابتنني بالهلع، لم أقل شيئا لكن قررت

العودة، اختطف جنت، حبيبتى جنت، وعدت... كادت أنا أن تصاب بالجنون، وعندما اتصلت بها من الجزائر قلت لها وهي تصفني بالنذل والوقح والشرير « أنى مازلت أحبها ».

بعد أعوام زارتنى أنا، والتقى أمين بجنت وتعانقا، ولم يكن أمين يتحدث العربية، بينما كانت جنت تتحدث بنوع من الصعوبة اللغة البولونية. قضينا العطلة الصيفية بالقالة، وأعجبت كثيرا بأمين الذي أصبح بطلا في رياضة العدو. سألتنى أنا :

— لقد تغيرت كثيرا ؟

— نعم، لم أعد أشرب وتوقفت عن التدخين.

إشارة :

« الناس أشتات، والدهر ميقات، والميقات عادات، والعادات زلات، والزلات حجب، والحجب حدود، ولكل حد باب، ولكل باب طريق، ولكل طريق نفاذ، ولكل نفاذ وصول ».

النفري

رسالة من أنا

حبيبي..

علّمتنى هذه السنوات كيف أتغلب على كراهيتى تجاهك والتي كانت نتيجة الصدمة، صدمة لم أكن أتوقعها منك، لكنى أستطيع الآن أن أقول لك أنني عفوت وتمكنت من قلب الصفحة، لأننا فى النهاية ضحايا القدر الذي صنعناه فى لحظة ذهول تعترى حياتنا بأيدينا... سمحت لي الأيام التي قضيتها رفقتك ورفقة ابنا وابنتنا أن أرى الأشياء من زاوية مختلفة، ليس فقط من زاوية ثقافتى بل أيضا من زاوية

أخرى وهي ثقافتك التي لم أتمكن من قبل أن أستوعبها برغم أنني قضيت في بلدك وأحضان ثقافتك تلك اللحظات الأشد رعبا في حياتي..
كان أمين في غاية السعادة وهو يلتقي بشقيقته التي حرم منها لأول مرة، وكنت سعيدة أن أعيد اكتشاف جنات ابنتنا التي لم تتغير عاطفتها تجاهي..
أريد أن أشكرك على كل تلك الحفاوة الحميمة وذلك العطف الذي غمرتني به..

المخلصة أنا

رسالة إلى أنا

شكرا أنا عزيزتي على رسالتك الدافئة التي أدخلت على قلبي سعادة لا يمكنك تصورها.. لقد بعث لقائي بك مجددا وبابنا أمين فرحة غامرة بداخلي ومنحني قوة روحية لا يمكن تصورها..
تصوري أنني قررت أن أجري، لقد أثار فيّ أمين قوة خارقة اكتشفتها وأنا أدخل ميدان الجري.. لقد انضمت إلى جماعة من الأصدقاء الذين يجرون كل يوم تقريبا، شعرت في البداية بصعوبة لكنني الآن لا أصدق ما يحدث لي ! لقد صرت أجري بشكل جيّدٍ ورائع، أصبح الجري جزءا من حياتي اليومية، لقد غيّرها بشكل مثير..
لقد سجلت نفسي لأشارك في ماراثون مدغاسن هذه السنة، ووضعت هدفا لي وهو أن أكمله حتى النهاية بتوقيت ست ساعات..
أكيد أنك تتذكرين صديقنا عزو، صاحب دار النشر الذي عزمنا مرة إلى بيته والتقينا بأعضاء ناشطين من جمعيتهم التي تهتم بالتراث المادي والمعنوي الثقافي لمنطقة الأوراس وتناضل من أجل إعادة الاعتبار لضريح مدغاسن.. إنهم هم من ينظمون سباق مدغاسن-ماراثون..

لقد أعجبتني الفكرة وحرضتني على المشاركة في أول ماراثون سأخوضه في حياتي.. أعرف أن المسألة في غاية الصعوبة، لكنني سأرفع التحدي وأقاتل من أجل كسبه إلى النهاية..

محيتي..

يوم السباق..

كان عدد العدائين كبيراً، عالم من الأجساد والألوان... في تلك الليلة لم أنم؛ كنت قلقاً، قلق غامض تدفق بداخلي، ومع ذلك كنت أسعى لتجنبه ونسيانه، أغفو لكن أستيظ بشكل فجائي والعرق يتصبب من جسدي، كنت خائفاً برغم الثقة التي كانت تملؤني طوال أيام التحضير الشاقة للماراثون، عدد من الصور كان يغزو ذاكرتي بشكل مبهم وفوضوي، كنت أعيش في لحظة واحدة زمنين متداخلين ومتشابكين، زمن الغفوة وزمن اليقظة حيث لا حد بينهما، رأيت طفولتي النائية تتناثر كورق شجر يابس، وتخترق كما الفراشات شاشة مخيلتي الرمادية، رأيتني فتى في سن أمين أركض حافي القدمين في البراري، أُلقي بالنظر السريع حولي حيث الروابي الناضرة الخضراء والأغنام السارحة تشغو وأغصان الأشجار تميد والآفاق غامقة اللون تمتد إلى ما لا نهاية، والخيالات الراقصة مثل الخطوط الشاحبة في قلب تلك النقاط غير المرئية للمدى المشكّل بألوان لازوردية.. يشدني منظر الطيور المسافرة فيتجلى لي من خلالها سفر منطق الطير وتلك الأصوات التي تتدلق من أعماق فريد الدين العطار عبر حكايات منطق الطير وقصصه وحكمه المعلقة ما بين السموات البعيدة.. تدنو مني الطيور وهي تحلق فيّ، أحس بنشوة المشهد وخفة جسمي الطائر في السماوات بينما تطوى من الأرض التي تدور.. كل الكائنات من تحتي تدور، الفراشات تحلق

تحتي وتدور والفتيات الدرويشات تركض من تحتي وتدور والأصوات
في قلب النقع كما عواصف الفصول الغاضبة تتصاعد تحتي وتدور..
وأيا تلك الحوريات ذات الإشراقات الباهرة والنهود الباهرة
تبتسم فتطل الشمس الوضيئة من شفاها الحمراء المؤددة، وعندئذ
يدب في جسمي الكون بكائناته متحدة، أشعر بنفس حركة تخترق
الظلمات والأنوار الغارقة في بحار النسيان، تتطاير أمام المذن العتيقة
والجديدة، يتظاهر في ملائي الملوك والأمراء.. يتجلى مدغاسن الطفل
وهو يحبو، يتسلق الجبال حابيا، يقف فوق قمة هرم أشم ثم يجلس
القرصاء شبه عارٍ، تلمع من عينيه خطوط مثل أشعة تمتد رأسا
إلى مرمى العين...

— من أنت ؟

— ستكتب عني يوما ما، أنا ابن الملك الذي لا تراه العين ولا يصل
إلى مرآه سوى القلب عندما تفتح أبوابه..

ثم تلاشى الصوت.. رحت أصيح أن تعال أيها الصبي الأمير، لكنه كان
مثل شعلة نار مقدسة تلوح في البعيد ثم سرعان ما شرعت تتلاشى..
هل أنا في حلم أم في حلم داخل حلم ؟ على قيد الحياة أم
في عوالم الممات ؟ ألتفت يمنة ويسرة أتحنس جسدي، تمتد إليّ نداءات
مثل صفير بعيد، أجدني على عتبة درب لا نهاية له.. طلقة في السماء،
تتحرك الجموع، تزحف مثل أسطورة تنبثق تحت شعاع شمس
صباح، يصطف الناس على الأرصفة، تتعالى الأصوات والتشجيعات..
أجري وسط العشرات من العدائين.. من ذلك الذي كان يهتف باسمي
مشجعا؟! نجتاز الكيلومتر الأول، تمتد الطريق وهي تفتح صدرها،
أشعر بالسعادة، الأرض والسماء عندي سواء، أتنفس، أجري، يتحول
الركض إلى شهوة عارمة، مددت يدي إلى كوب ماء، بدت أنا وهي

في عمرها الأول، فتاة مراهقة مسكونة برغبة السفر إلى أراض مجهولة، لم نكن قد تعرّفنا على بعضنا بعد، وقتها كنت تلميذا في المتوسط وأحلم أن أكون بطلا في رياضة العدو، مسافة ثلاثة كيلومترات حواجز، عندما التقيت أنا لأول مرة خفي لها قلبي.. ابتسمت وقالت ابتسامتها كل شيء، تحدثنا في كل شيء، عن بلدنا وبلدتها وبلدي، عن الدين والرأسمالية والشيوعية، عن التاريخ والثقافة والعادات، عن الحب والزواج. وذات مساء عزميني إلى الملهى، ويجب أن أذكر أني في تلك الليلة اكتشفت لأول مرة ظلماتي الدامسة التي كانت تقبع بداخلي.. وبكيت كما لم أبك من قبل قطّ، وفي اليوم الموالي رحنا ننسج حلما بسعة الزمن القادم..

أشعر بالهواء يجرثم فوق صدري، قدماي مسمرتان في الأرض، تمر بجنبي أطيف كثيرة، فكرة التوقف لم تكن تستولي عليّ، كنت أجري كأني على وشك موت سريع..

توقفت لحظة، انبعث بداخلي صوت غريب راح يحثني على مواصلة الجري كأنه كان يقول لي : « تقدّم ! ها أنت تقترب من الكيلومتر الخامس والعشرين ».

أشعر بالعياء وبرجلاي تتثاقلان، أشعر بالحر يتقد بداخلي ويثير حالة من الانكماش، أشعر بعضلاتي تتشنج وتتقلص وتثير بداخلي ألما شديدا، وفجأة بدا الطريق غريبا، موحشا، وراحت الشمس تتساقط أمامي، يتداعى العالم المرئي، تحاصرني الأطياف من كل الجهات، تبدو الأرض ملساء، تتثاقل خطواتي، توقف من حولي كل شيء، وانبهت فجأة فتاة عذراء ذات عينين خضراوين وقامة ممشوقة وشعر حالك.. راحت تتحدث إليّ بالبربرية فيها مزيج من رائحة نوميديا، سرت في جسدي رجفة مباغته فقالت : « لا تخف »، لم أكن خائفا إلا أنني شعرت وكأن هذه اللحظة سبق وأن عشتها من قبل في زمن قديم..

ثمة دوار غير مسبوق ثار في رأسي، اقتربت مني بينما كان يصطف

وراءها جمع غفير، مدت إليّ يدها اليمنى، غمرتني لحظتها رغبة في البكاء بين يديها، تمنيت لو حكيت لها حياتي دفعة واحدة ودون توقف.. وبإشارة منها تملّكني سكون كبير وكأني داخل معبد للزهاد..

— أين أنا ؟

— لا تخف..

— من أنتِ ؟!

— أنا الأميرة أسوة..

— صحيح ؟! (غمرتني فرحة طفولية).

— وأنت، هل تعلم من أنت ؟!

— أجل، الآن أتذكر زمن الغيب البعيد، زمن الحلم.

— إحكِ..

— أجل سأحكي ؛ في زمن بعيد التقيتك.. كنت صغيرة لا تتجاوزين العامين، ومع ذلك كنت في غاية النضج، وكان والدك مدغاسن في أوج فتوّته ؛ رأيته فتى يحبو، يتسلق جبل الحقيقة، كنت أجري على شاطئ نهر أوبا..

— أجل، أعرف ذلك النهر الذي يعج بالتماسيح والحيوانات المدهشة.

— لم أكن وحدي، أتذكر ذلك جيّدا، كان روب برفقتي.

— أتذكّر كلبك روب، كم كان رائعاً..

— لم تكن سلالته معروفة، وقيل أنها انقرضت مع الوقت، لكن روب ظل يحتفظ بذلك الخليط الهجين بين الرباني والبشري. التقيته صدفة بالقرب من نهر موحش، كان روب يعاني من جرح قاتل، اقتربت منه، حملته على ظهري وأخذته إلى جدي، نظرت إليّ وهي تقول : « من أين أتيت به ؟ ». رويت لك القصة كما هي، ورحت تمسدين

ظهر روب.. أعجبتِ بروب وقلتِ : « أريده » لكن والدك مدغاسن
نظر إليك وقال : « هذا الكلب ليس لك يا ابنتي ».
— وأنا رحّت أبكي وأصرخ : « أريد هذا الكلب، أريد هذا الكلب... ».
وأضافت أسوة :

— تركتني بعدها، تركت روب ورحت تجري..
كنت أقول لنفسي وأنا أقترّب من غيبوبة جلية : « واصل جريك،
واصل ركضك، لا بد أن تصل إلى مدغاسن، لم تبق تفصلك عنه سوى
مسافة قصيرة ».

— خرج الكون المملّغز من الجحور وراح يجري.. بدت الشمس
في كبد السماء شاحبة، أَدفع بالخطوة تلو الخطوة، خط الوصول ليس
بعيداً.. مدغاسن ليس بعيداً.. مزيداً من الماء.. أقترّب من قوس قزح
القريب من قدمي.

— توقف مدغاسن وأشار بيديه إلى السماء، انفتحت الأرض
وتهاوت السماء، تبعثرت الشمس والنجوم والأقمار والكواكب، ونزل
العالم كله إلى أعماق تلك الحفرة العميقة المليئة بالألغاز والأسرار.
ظل أبي مدغاسن فاتحاً ذراعيه، وراحت الأزمان تتدافع بشكل متسارع
ورهيّب، وراحت تهتف باسمي.

— أنا ؟!

— أجل أنت، أمازلت لا تعرف من أنت ؟!

— من أكون بنظرك ؟

أطلقت ضحكة طويلة، بينما راح وجه مدغاسن يتجلى عبر
وجهها.. كان وجهها من حجر ورسوم وإشارات محفورة غامضة،
وفي كل إشارة كانت تسكن نقطة سوداء هي أشبه بالباب نحو نفق

ظلال مدغاسن

المغارة الدامسة حيث يرقد مدغاسن مثل كتاب خرافي حافل بالحروف والكلمات المتعازمة في دروب الحلكة والنور المعتم... كان مدغاسن يقترب مني، بينما كنت أجهد الخطو، أبحث في داخلي عن بقايا قوة داخلية تقرّبني من خط الوصول... كان مدغاسن يقف أمامي شامخاً وهو يحمل تلك الميدالية التي سيعلقها في عنقي.. لم يبق لي سوى أمتار لأعانق خط الوصول.. مدغاسن... ها هي قدمي، ترتفع، تنفتح وتطأ خط الوصول.. مدغاسن 42,195 كيلومتر.

نبذة عن حياة الكتاب

طاهر حليسي : صحفي وكاتب جزائري، ولد وترعرع بباتنة بالأوراس. حاصل على شهادة البكالوريا مزدوجة اللغة وشهادة الليسانس في العقائد والفلسفة. درس اللغة الفرنسية قبل أن يلتحق بالصحافة. يشغل حاليا منصب مدير مكتب الشروق الجهوي بباتنة. أنجز عدة تحقيقات وروبرتاجات إعلامية خارج الوطن.

احميدة عياشي : إعلامي، صحفي، مؤلف وممثل مسرحي، يعد من الروائيين المجددين في الحقل الروائي الجزائري، وُلد عام 1958. درس العلوم السياسية، وقام بتأسيس وإخراج اليومية الإخبارية « دزاير نيوز »، وهو مؤلف روايات ومقالات أدبية وسياسية.

الفهرس

- 7قبر الخالدين / طاهر حليسي
- 17ظلال مدغاسن / احميدة عياشي
- 35نبذة عن حياة الكتّاب

TABLE DES MATIÈRES

<i>Les douze pierres de minuit / Chawki Amari</i>	7
<i>Le syndrome Imadghassen / Nassira Belloula.....</i>	39
<i>La tetraktys des Aurès / Ameziane Ferhani</i>	53
<i>La fille des pierres / Jaoudet Gassouma.....</i>	95
<i>À la mémoire de la pierre numide / Amin Khan.....</i>	115
<i>Rallye barbare / Rachid Mokhtari</i>	117
<i>Les pierres qui sont des étoiles / Thierry Perret</i>	161
<i>La fille de la lune / Mohamed Sari.....</i>	187
<i>Biographie des auteurs.....</i>	217

Magister en Art et Communication autour de l'Art contemporain algérien, il est écrivain, journaliste, plasticien, réalisateur, coproducteur à la radio et cinéaste...

Amin Khan: né en 1956 à Alger, est un poète algérien contemporain de langue française. Il suit des études de philosophie, d'économie et de sciences politiques à Alger, Oxford et Paris. Il est plus tard fonctionnaire international à l'UNESCO.

Rachid Mokhtari: né en 1950 à Tizi Ouzou, universitaire, journaliste, romancier et essayiste. Il a publié plusieurs ouvrages consacrés à la littérature algérienne. Spécialisé dans la critique littéraire et artistique, il anime des émissions consacrées à la littérature sur les ondes de la chaîne II et III de la radio algérienne.

Thierry Perret: journaliste à Radio France Internationale, dont il a été correspondant en Afrique de l'Ouest, de 1989 à 1993. Pendant plusieurs années rédacteur en chef de l'agence de presse MFI (Medias France Intercontinents), il anime aujourd'hui le département édition de RFI. Il a effectué de nombreux travaux sur les médias en Afrique.

Mohamed Sari: né en 1958 à Cherchell, il est professeur à l'université d'Alger. Écrivain bilingue, romancier, traducteur, il a également publié des livres de critique littéraire.

BIOGRAPHIE DES AUTEURS

Chawki Amari: né en 1964 à Alger, où il grandit. Il reçoit une formation de géologue mais se tourne vers le métier de journaliste. En plus d'être chroniqueur et journaliste-reporter, il est aussi caricaturiste et romancier. Il pose sur le quotidien de son pays un regard critique, très ironique et plein d'humour.

Nassira Belloua: née en 1961 à Batna. Elle est l'auteure d'une quinzaine de romans, essais, récits et recueils de poésie. Après avoir travaillé dans plusieurs quotidiens d'information algériens, elle s'installe à Montréal et collabore à Radio Canada. Actuellement, elle poursuit des études supérieures en Histoire à l'université de Montréal.

Ameziane Ferhani: né en 1954 à Alger, il s'est consacré au journalisme culturel et à la communication après des études en sociologie urbaine. Rédacteur en chef du magazine *Parcours Maghrébins* et rédacteur en chef adjoint d'*Algérie-Actualités* dans les années quatre-vingt, il dirige depuis 2006, les pages Arts & Lettres du journal *El Watan*.

Jaoudet Gassouma: né en 1966 en France. Il est titulaire d'un DESA en Arts plastiques, et d'un

m'a fait tant rêver. Avant de quitter les lieux, nous nous sommes assis sur le promontoire en face de la mer, sans dire un mot, le regard voguant vers l'horizon brumeux du ciel et de la Méditerranée, laissant seules nos pensées et nos pulsions nous tracer les pistes à suivre, comme le faisaient, à une autre époque, Juba sin¹ et Cléopâtre Séléné.

1. Concernant la vie de Juba II et de Cléopâtre Séléné, je me suis servi de deux ouvrages : *Juba II et Cléopâtre Séléné* de Abdelaziz Ferrah et *Moi, Juba roi de Maurétanie* de Josiane Lahlou.

L'endroit n'était pas aussi désert que je le croyais. Comme nous, beaucoup de couples sont venus chercher un havre d'amour. Peut-être croyaient-ils eux aussi que seule une reine qui avait connu le grand amour pouvait les accueillir, bénir le leur et leur offrir un cocon protecteur.

Peut-être que pour ces couples, le mausolée n'était qu'un endroit propice à leurs amours interdits. Ils n'en avaient cure de son passé, fut-il vieux de deux mille ans ! Connaissaient-ils vraiment la vie tumultueuse du roi et de la reine qui y étaient enterrés ? Ils sont venus à la recherche d'une intimité qui leur permettrait de se côtoyer sans ambages, de se sentir tout près l'un de l'autre, se caresser les mains, les bras, et peut-être aussi, pourquoi pas, voler de furtifs baisers, si aucun regard inquisiteur ne les surveillait de loin.

Allons-nous les imiter ? Sommes-nous différents d'eux ? Pour le moment, Abdellatif n'est pour moi que ce brillant étudiant, ayant un savoir historique impressionnant, avec lequel je peux rester des heures et des heures sans me lasser. Vais-je me mentir à moi-même et nier mon attirance physique pour son beau corps athlétique ? Mais par pudeur, je n'aime pas trop m'y étaler, ni en mots, ni en images. Peut-être est-il trop tôt pour en parler ?

Quoi qu'il en soit, nous avons passé des heures inoubliables pour une première sortie ensemble. J'ai enfin réalisé mon rêve d'enfant en marchant sur le même sol que celle qui dort à l'intérieur du mausolée depuis des siècles, cette reine dont la vie

J'ai relevé la tête et je l'ai regardé un moment, dubitative, pensive, farfouillant dans mon esprit encore embrouillé par l'exaltation de la merveilleuse rencontre. Des mots, des phrases s'empressaient d'exprimer ma jubilation. Mais aucun d'eux n'a pu vraiment décrire ce que je ressentais de si intense. Alors, je me suis confinée dans mon silence, ayant peur de gâcher mon bonheur par de piètres mots tellement ressassés qu'ils ont perdu toute saveur. L'instant que je vivais était unique et les mots pour l'exprimer devaient être eux aussi uniques, jamais encore utilisés. En attendant de les créer, j'ai savouré mon silence jubilatoire, et de nouveau, j'ai laissé mon regard errer à vau l'eau dans l'espace azur du ciel et de la mer.

Je me suis levée, nous avons marché, fait le tour encore une fois. Abdellatif m'a gratifiée d'une somme d'informations sur le règne de Juba sin, sur son savoir et ses œuvres, sur son amour des arts et des sciences, sur l'immense travail accompli pour faire de Césarée l'une des villes les plus rayonnantes de son époque, à l'instar de Rome et d'Alexandrie.

Tout en discutant, attirés par la beauté du paysage et la fraîcheur qui émanait de la petite forêt toute proche, nous nous sommes éloignés du mausolée. Et là, je suis revenue sur terre, et j'ai constaté le nombre impressionnant de couples isolés çà et là au milieu des pins et des chênes, cachés parmi des arbustes divers, des ronces, des broussailles, des palmiers nains, et qui savouraient leur intimité, loin de toute importunité.

dessus, m'éloigner de la côte jusqu'à l'horizon brumeux et admirer de loin la colline et sa huitième merveille du monde, comme le faisaient anciennement les marins qui s'approchaient du port de Tipasa.

J'ai devancé Abdellatif en allongeant le pas sur la plate-forme rectangulaire au sol couvert de gravier, sur laquelle repose ce monument éternel, le regard rivé sur les escaliers de rochers immenses s'élevant vers le ciel azur. J'ai fait le tour du mausolée, comme ma grand-mère jadis lors de son seul et unique voyage, je me suis assise sur un rocher et j'ai donné libre cours à mes yeux pour planer selon leur bon plaisir. Mon bienheureux compagnon est resté debout, silencieux. Lui aussi, connaissant parfaitement le parcours de Juba sin et Cléopâtre Séléné, était sûrement en train de voir les deux amoureux lorsqu'ils venaient à cheval faire une halte sur cette colline et rêver à haute voix.

Regarde bien là-bas Abdellatif! ai-je dit en pointant mon doigt vers le versant ouest du mont Chenoua. Tu vois ce minaret blanc, notre maison est un peu plus au Nord vers le haut de la colline. On ne la voit pas bien d'ici. Mais de notre cour, ce tombeau est visible comme le soleil. Je le voyais chaque matin. Je me suis souvent demandé ce qu'il représentait, ce qu'il contenait et j'ai aussi toujours rêvé de le visiter.

— Maintenant c'est fait, dit Abdellatif enthousiaste. Exprime-toi librement. Dis-moi ce que tu ressens de rencontrer ta reine après une si longue attente?

« Ah bon ! Quelle surprise », a-t-il dit avec un léger étonnement.

Et ce fut le début d'une autre histoire d'amour, aussi palpitante, aussi exaltante, la nôtre, et qui s'inspirait, sans vraiment l'avouer, de celle qui avait façonné le royaume antique de Maurétanie, et bien avant, celle de la mirifique Alexandrie.

Sans vraiment nous concerter, le choix s'est imposé de lui-même. On voulait fuir les bruits des salles de classe et des couloirs toujours encombrés d'étudiants empêtrés à défaire et refaire le monde, avoir un espace calme, loin des yeux inquisiteurs, qui nous offrirait le loisir et la liberté de nous confesser, de dire et redire notre amour, sans mâchonnement, ni balbutiement. Pas d'endroit propice à ce genre de rencontre que le mausolée de notre belle reine.

En cours de route, la solennité de l'évènement m'a imposé un silence religieux. Mais mon esprit était torpillé par une effervescence vacillante. J'attendais ce moment depuis ma tendre enfance. Des images, des voix, des scènes réelles ou imaginaires, vécues ou lues dans des livres s'entrechoquaient, s'alternaient, dialoguaient, m'interpellant de près comme de loin, mais sans altérer le moins du monde mon exaltation de fouler enfin le sol du mausolée.

Dès le moment où le sommet de la pyramide a commencé à apparaître, mon esprit a cessé toute activité. Mon regard assoiffé a pris le relais. C'était une journée printanière, magnifiquement ensoleillée, avec une mer à la surface tellement figée que j'ai eu soudain la sensation que je pouvais marcher

Le sculpteur a dû retravailler mille fois les traits du visage pour faire ressortir la mine d'une reine qui ne s'était jamais départie de la tristesse de son enfance, une princesse gâtée à qui on ne refusait rien, et qui, du jour au lendemain, tombait dans la déchéance et l'humiliation de l'exil. Ensuite à l'université, surtout au département d'histoire où tout un rayon de livres leur était consacré.

Moi aussi j'ai eu mon coup de foudre pour Abdellatif dès le premier regard. Était-il vraiment pour lui ? Ou bien pour le livre qu'il tenait entre les mains ? Je suis montée dans le bus des étudiants. Il était bondé. Des yeux, j'ai cherché une place où me mettre et je l'ai vu, coincé dans un coin, adossé à une vitre et tenant dans sa main libre un livre. Au début, rien de spécial ne m'a attirée. Quoi de plus normal qu'un étudiant qui révise son cours pendant le trajet en bus ? Sous la pression du nombre d'usagers qui grossissait d'un arrêt à l'autre, je me suis avancée jusqu'à le côtoyer. Et là, j'ai lu le titre du livre qu'il tenait entre les mains et qui accaparaient tout son esprit, au point de ne pas réagir au brouhaha qui l'entourait. « Juba II et Cléopâtre Séléné » tel était le titre de l'ouvrage. D'un geste involontaire, ma main a pris le livre et l'a bougé de quelques centimètres afin que je puisse lire le nom de l'auteur : Abdelaziz Ferrah. Un auteur que je ne connaissais guère. L'étudiant a levé les yeux, m'a souri, et m'a dit : « Très belle histoire ! Tu dois lire ce livre ! ». J'ai répondu rêveuse : « Cléopâtre Séléné est ma reine préférée depuis que j'étais toute petite ».

impuissant à te guérir, et triste aussi d'entendre son fils pleurer comme s'il appréhendait déjà de vivre orphelin de mère.

Le jour de ton décès, tout le royaume te pleura amèrement. La lune elle-même, de tristesse, disparut du ciel, plongeant la nuit dans une obscurité d'où montaient des hululements funèbres, accablée par ta disparition, car tu portais son nom Séléné (lune) et tu avais été sa parfaite représentation sur terre.

Repose en paix chère reine ! Tu es toujours chez toi, comme du temps de Juba sin. Nous te chérissons et nous rendons visite à ton mausolée de temps à autre pour perpétuer ta mémoire.

On dit toujours que le hasard fait bien les choses. Du moins, moi, il ne m'a pas déçue. Il a fait coïncider ma première visite au mausolée de la reine Cléopâtre Séléné avec mon premier grand amour. Je connaissais tout d'elle. J'ai épluché tous les livres que j'ai eu la chance de trouver. D'abord au lycée où j'ai pris l'initiative personnelle de visiter le musée antique de Cherchell et où je suis restée de longues minutes à contempler les visages merveilleusement sculptés des deux amoureux : Juba sin et Cléopâtre Séléné, deux visages rayonnant de vie et de jeunesse. Lui, jeune éphèbe, aux joues glabres, le regard timide, tout le contraire de son père Juba I avec sa barbe touffue, le front bombé, les cheveux crépis et le regard fier, hautain, sûr de lui. Elle, le regard perçant, la mine boudeuse, le nez busqué et le menton légèrement entamé, un diadème tressé sur ses cheveux coiffés en nattes bien enroulées.

le rituel berbère, corps mis sous terre tel qu'il a vécu, sans le vider de ses viscères comme le faisaient tes ancêtres les pharaons. Tu savais d'instinct l'inutilité de cette initiation mortuaire. Le corps, une fois éteint, dépérit lentement jusqu'à se mêler à la terre. C'est l'âme qui s'en ira dans l'au-delà. Maintenant on le sait. Du moins, c'est ce à quoi nous croyons.

Tu voulais une pyramide, non dans sa forme angulaire comme celles d'Égypte, mais circulaire : un disque solaire, le dieu des dieux, Râ encadrant Amon, le Tumulus berbère saharien. Sur le plan architectural, tu voulais un amalgame de styles : colonnes romaines, chapiteaux ioniques et esprit pharaonique. Tout autour, des statues de lions et de lionnes, des inscriptions. Mais au-dessus du portique d'entrée, les statues d'un homme et d'une femme : Juba sin et Cléopâtre Séléné. Tu le voulais mausolée à la gloire de votre amour, afin qu'il reste un modèle de vie pour les générations futures.

La faucheuse t'a ravie à ton bien aimé très jeune, à quarante ans à peine, juste après avoir enfanté ton fils Ptolémée, le prince héritier du royaume de Maurétanie. Tu souffrais d'un goitre qui te cloua au lit pendant des semaines. Il n'y avait aucun remède pour alléger ton mal, et tu te laissas mourir en dépit des efforts des médecins qui se relayaient à ton chevet pour te donner les meilleurs soins. Tu avais la poitrine brûlante d'où s'échappait un souffle rauque. Ton corps maigrissait de jour en jour. Juba sin entra et sortait au milieu des pleurs et des lamentations des servantes, les yeux en larmes,

aux arbustes épineux, dont la crête était constamment bercée par le bruissement des vagues toutes proches qui lui arrivaient du nord, et le vent, tantôt glacial, tantôt caniculaire, qui la fouettait côté sud, de l'atlas tellien avec ces immenses forêts de chênes et de cèdres, sa riche flore et sa faune sauvage faite de lions, de singes et même d'éléphants.

Il t'avait murmuré son projet à l'oreille comme une déclaration d'amour. L'idée t'avait enchantée. Mais tu ne le voulais pas entièrement égyptien. Tu te sentais à moitié berbère depuis que tes pas avaient foulé le sol du quai du port de Yol. Et de suite, tu tombas amoureuse de son climat tempéré, de ses reliefs variés entre plaines, plateaux, collines et montagnes, mais surtout de ses gens qui t'adulaient, reconnaissant ton rang de princesse d'un pays célèbre, et t'ont acceptée comme leur reine, l'épouse de leur roi Juba sin et bientôt la mère de leur futur roi Ptolémée. Ils te consolèrent en te disant que tu n'étais pas tellement éloignée de ton Nil fabuleux puisque sa source coulait dans cette partie de l'Afrique, et que ton bien-aimé Juba sin avait entamé des recherches en engageant des techniciens qu'il supervisait lui-même, dans des randonnées qui duraient des mois pour enfin situer avec exactitude la source première du fleuve éternel.

« Endroit magnifique pour élever un mausolée familial », avais-tu répondu exaltée par le projet. Mais tu ne voulais pas de momification pour passer dans l'autre monde. Tu ne voulais pas qu'on touche à ton corps. Tu voulais un enterrement selon

le bel azur du ciel et de la mer qui s'embrassaient dans l'horizon, que vous vous laissiez aller à des confidences sentimentales sans fin, que vous évoquiez vos souvenirs communs d'adolescents dans les palais de Rome. Et là, chacun se pressait d'affirmer que c'était lui le premier à avoir eu le coup de foudre pour l'autre, qu'il avait tout fait pour attirer l'attention sur lui, que son amour était plus fort, plus profond et qu'aucun séisme ne pouvait l'ébranler. Juba sin te voulait toujours couverte de bijoux et de fleurs, roses, jasmins et hyacinthes qui parfumeraient ton corps de reine à la peau brune, aux yeux d'émail avec des paupières aux longs cils, le visage dur, le nez busqué, le regard hautain d'une reine exilée, n'étant jamais arrivée à oublier que tu étais passée très brutalement du rang de princesse adulée à celui de victime. Tu avais toujours les cheveux tressés en nattes épaisses, ramenées sur ta tête longue et fine et, sur la savante coiffure, scintillait un diadème d'or, d'émail et de plumes. Des bracelets de Lapis-lazuli ornaient tes poignets. Le scarabée d'or de ta bague brillait à l'un de tes doigts. Le visage était majestueux et impassible. Juba sin ne lésinait sur aucun moyen, dut-il parcourir le monde, pour compenser ton exil. Il voulait que tu te sentes vraiment chez toi, dans ta vie d'ici bas et même dans celle de l'au-delà en étant enterrée dans un mausolée d'inspiration égyptienne.

L'idée de construire un mausolée pour honorer ta gloire a germé dans l'esprit de Juba sin lors de l'une de vos haltes dans cette magnifique colline

merveilleux dessins, les statues des célébrités de ton époque, dont ton portrait et celui de ton mari le roi Juba sin qu'on trouve dans les musées de Cherchell et de Tipasa, les terrasses et les rues inondées de soleil et parfumées de myrtes, roses, lauriers-roses, mimosas, jasmins, chèvrefeuilles, attestent du grand travail d'orfèvre des maçons et sculpteurs et du goût raffiné qui régnait dans votre belle cité.

Inspirée par ton profond désir de copier le paysage urbain d'Alexandrie, et pour donner son empreinte maritime à votre ville baptisée Césarée, ton roi Juba sin a fait construire un phare digne d'être l'héritier de celui qu'on considère comme l'une des sept merveilles du monde. Aujourd'hui encore, il est là, à l'entrée marine de Cherchell, l'antique Césarée, pour témoigner de la grandeur de votre règne.

Tu disais toujours que dès que tu fermais les yeux, les pyramides d'Égypte s'élevaient devant toi comme un appel nostalgique de ton enfance. Et le roi Juba sin, parce qu'il t'aimait à la folie, parce qu'il ne pouvait ne pas accéder à tes désirs les plus incroyables, fit construire une pyramide qui aura l'honneur de recevoir ta dépouille comme cela a toujours été fait pour tes ancêtres, les rois de l'Égypte pharaonique.

Le choix du site avait été fait ensemble, dans un lieu où vous aviez l'habitude de vous reposer lors de vos grandes chevauchées dans les collines environnantes pour échapper aux bruits de la ville. C'était en ce lieu magique où vous vous asseyiez côte à côte que vos regards langoureux planaient dans

de père, lui aussi vaincu par l'*impérator* de Rome et qui a préféré la mort au destin d'esclave avec tout ce qu'il charrie comme humiliations. Il connaissait le destin tragique de son arrière-grand-père Jugurtha, qui avait été fait prisonnier vivant et avait terminé sa vie dans les geôles de Rome. Cruel destin pour un roi ! La mort est de loin préférable ! Le roi Juba I s'était fait tuer lors d'un combat héroïque par l'un de ses soldats. Blessé, il avait ordonné à ce dernier de mettre fin à sa vie.

Et le petit *Juba sin* avait été emprisonné comme toi, Cléopâtre Séléné, lui aussi coupé de sa ville natale dans une autre partie de la *Nova Africa* qui avait refusé la colonisation romaine en se soulevant contre sa tyrannie.

Le destin a voulu que ce soit votre ennemi, celui qui a causé votre malheur à tous les deux, qui vous rassemble et vous permette d'avoir une éducation et un savoir pour enfin retrouver un tant soit peu la gloire perdue de vos parents respectifs.

Tu avais toujours, chère reine, la nostalgie de l'Égypte. Tu avais hâte de quitter Rome pour la Numidie, le nouveau royaume de Maurétanie, malgré le grand faste des festivités qui célébrèrent ton mariage avec Juba sin.

Ce fut un grand amour qui dura vingt ans et qui vous avait permis à tous les deux de bâtir un royaume resté telle une lumière éternelle dans l'histoire de cette terre. Jusqu'à aujourd'hui, les fines colonnes de marbre, les prestigieuses mosaïques aux

ôtèrent la vie. Elle avait préféré mourir plutôt que de rester en vie et subir l'humiliation d'être l'esclave de son vainqueur, l'*impérator* Romain qui avait tué son mari et bien-aimé Marc Antoine, être traînée dans la poussière des rues de Rome en captive de guerre et mourir de faim et de froid dans la cellule d'un sous-sol morbide.

Je te vois petite fille de dix ans, orpheline de père et de mère, avec ton frère jumeau et ton frère cadet de six ans, passant de statut de princesse adulée à celui d'esclave, emmenée de force de ta ville natale, la glorieuse Alexandrie avec son merveilleux phare, vers Rome, une ville dans laquelle tu te sentiras exilée durant toute la durée de ton séjour. Par quel miracle as-tu pu avoir la vie sauve? D'habitude, on éliminait les descendants des vaincus même s'ils n'étaient qu'enfants, sans aucun état d'âme, de peur qu'ils grandissent et prennent leur revanche. Peut-être parce que tu avais du sang romain car ton père n'était autre que le grand Marc Antoine qui était tombé amoureux de ta mère, la Grande Cléopâtre, au point de tout sacrifier pour la rejoindre en Égypte. C'était le grand amour de l'époque. Les deux amants avaient rêvé de bâtir un empire qui réunirait Rome et Alexandrie et faire de ces deux contrées un havre de paix pour les deux peuples. Mais c'était sous-estimer la force de l'adversaire et la puissance de l'armée romaine. Quoi qu'il en soit, tu es la fille d'un grand amour, et tu allais vivre toi aussi un autre grand amour avec un autre prince déchu alors qu'il n'avait, tout comme toi, que dix ans, orphelin

de voyager où bon me semblera. Et là, je visiterai le mausolée de ma chère reine.

Parmi les belles choses que j'ai découvert au lycée: la bibliothèque. Elle recelait des livres de toutes sortes et l'accès était libre. Je trouvais un grand plaisir à m'engouffrer entre les étagères et à prendre les livres entre les mains, lire les titres, les noms des auteurs, les quatrièmes de couverture, les titres de chapitres... Une délectation sans limites. Et immense fut ma joie, quand une photo en couleur sur toute la couverture d'un livre me secoua des cheveux à la pointe des pieds. Le tombeau de la *roumia* qui a bercé mon enfance et attisé mes rêves s'étalait devant mes yeux étincelant de joie. Je lus le titre: *Le mausolée du royaume de Maurétanie*. Avec un sous-titre entre guillemets et en caractères plus petits: *(Le tombeau de la chrétienne)*. Je n'en croyais pas mes yeux. Enfin, j'allais percer le mystère de Cléopâtre Séléné, la reine de mes rêves au destin miraculeux.

Effectivement, ce que j'ai découvert dans ce livre et dans d'autres que je dénichais au fur et à mesure dans cette caverne aux mille merveilles qu'était la bibliothèque de notre lycée, m'a fait vivre des mois d'exaltation insoupçonnée.

Oh, ma ravissante Cléopâtre! J'ai versé de chaudes larmes en apprenant comment ta mère, la grande reine pharaonique d'Égypte, s'était laissée volontairement mordre par des serpents venimeux qu'ils lui

les habitants, hommes et femmes, s'étaient empressés d'embrasser les nouveaux préceptes comportementaux que des groupes de barbus venus d'Alger, de Blida et d'autres villes avaient ramenés avec les lots de nourriture et couvertures apportés comme aide aux sinistrés du séisme. Mon tour ne tarda pas à arriver. Comme la mort, personne n'y échappe. Un soir en revenant du collège, mon père m'a jeté un paquet entre les bras et a dit d'un ton péremptoire : « demain matin tu ne sortiras pas de la maison sans le *hidjab* ». J'en suis restée bouche bée. Deux mois seulement nous séparaient de l'examen du BEM et mon désir de réussir supplantait toutes mes autres préoccupations du moment. Je n'ai rien dit. Je n'avais rien à dire. Je ne pouvais rien dire, ni rien faire, sinon me soumettre. Au fond, ce n'était pas une surprise, je m'y attendais. Je pressentais que mon entrée au lycée ne pouvait se faire sans *hidjab*. Alors, j'ai fait contre mauvaise fortune bon cœur. Après tout, je n'étais pas la seule à être habillée de la sorte.

Quand les résultats ont été affichés devant l'entrée du collège et que j'ai vu mon nom bien calligraphié sur la feuille collée avec des punaises, j'ai jubilé de joie et failli danser si la pudeur ne m'avait retenue. Ma joie a été à son comble lorsque, deux jours plus tard, j'ai encore relu mon nom sur la feuille d'affectation. J'allais être interne au lycée de Cherchell. Ouf ! Quelle bonne et agréable nouvelle ! Une autre vie m'attendait. Et, comme me l'avait si bien dit ma grand-mère, je grandirai et je serai libre

En cours de route, tout en contenant des sanglots qui affaiblissaient sa voix, elle m'expliqua que c'était la décision de son père. Le *Hidjab* ou la maison! Sa mère avait beau la défendre, son père restait intransigeant. À un certain moment, comme sa mère s'entêtait à refuser le nouveau *djilbab* noir (comme un corbeau disait-elle) qui enlaidissait sa jolie fille, le père furieux l'avait menacée de divorce. Pauvre Fatiha! Cacher toute cette beauté avec un tissu noir qui ne laissait paraître que le visage! Et encore! Caché à moitié! Je n'ai d'ailleurs pas dit grand-chose. En mon for intérieur, je pressentais que mon tour ne tarderait pas à venir. C'était une marée qui déferlait sur toutes les filles dont le corps commençait à se transformer et laissait apparaître les formes de femme nubile. Fatiha n'était pas la seule voilée au collège au cours de cette rentrée tumultueuse. Elle fut soulagée de voir plusieurs élèves portant le même accoutrement. D'ailleurs, au cours des jours suivants, elles avaient vite formé un groupe et commencé à valoriser leurs nouveaux statuts de filles *hidjabisées*. Durant la même année, il ne se passait pas une semaine sans voir d'autres filles rejoindre le clan des *mouhadjabattes*, même si une nouvelle appellation était apparue: *les sœurs musulmanes*. Cela avait coïncidé avec le tremblement de terre qui avait secoué la région de Tipasa. Une effervescence cauchemardesque s'était emparée des habitants. Le tremblement de terre était une punition de Dieu car, quelque part, les croyants ont failli à leurs devoirs religieux. Et pour se racheter,

rapidement possible de n'importe quelle silhouette masculine, tout comme il était interdit au frère d'adresser la parole à sa belle-sœur sans la présence du mari. C'étaient des changements radicaux que j'avais constatés en quelques petites années, mes années de collège. Et bien sûr, après les femmes est venu le tour des filles. Comme j'étais frêle et de petite taille, on ne s'intéressa pas à moi tout de suite. J'entrais dans ma quatrième année de collège et je gardais mes robes plus ou moins courtes, mes pantalons, et surtout mes cheveux au vent, libres de toute entrave. Mais ils étaient toujours coiffés en deux petites nattes tressées qui pendaient sur mes deux épaules. C'était à peine si on pouvait les voir, comme si je n'avais pas de cheveux, comparée aux autres filles. Surtout ma cousine Fatiha, plus jeune que moi et qui fut la première à qui on avait fait endosser le *djilbab*. Elle était grande de taille et avait des cheveux couleur châtain, touffus, qu'elle coiffait agréablement. Nous étions jalouses d'elle et de son élégance que sa mère savait mettre en évidence, par un bon choix de robes et un changement permanent de coiffure. Mais à la rentrée de sa troisième année, alors que je l'attendais à la sortie de leur maison à quelques encablures de la nôtre, je n'ai vu qu'une silhouette noire s'avancer vers moi d'un pas incertain, ayant peur de tomber. Il a fallu un grand effort de concentration pour la reconnaître. De par son visage boudeur et sa réponse mitigée à mon bonjour, j'ai tout de suite remarqué qu'elle était triste de porter un aussi hideux habit.

famille devait suivre à la lettre, en commençant par sa tenue vestimentaire.

Mon père, mes oncles, ont complètement changé depuis qu'ils ont laissé pousser la barbe et troqué les pantalons et les vestes contre les gandouras et les chéchias. Je les voyais chaque fin de journée se réunir au pied de la meule de foin, parfois rejoints par des hommes d'autres hameaux, et palabrer sur les nouveaux changements de comportement, à commencer par les habits des femmes. Un soir, mon père a ramené un Hidjab qu'il a ordonné à ma mère de porter et de brûler le *haïk* blanc qu'elle endossait d'habitude avant de sortir. J'ai remarqué aussi que mes oncles n'embrassaient plus ma mère sur les joues où même sur la tête toujours protégée par un foulard. Ils se contentaient de hocher la tête ou de plaquer la paume de la main droite sur la poitrine en guise de salut. Même avec leur mère, ils se contentaient de frôler le foulard de sa tête par un furtif baiser. La séparation des hommes et des femmes est devenue une constante sacrée. Plus aucun de mes oncles n'adressait la parole directement à ma mère, ni d'ailleurs mon père à ses belles-sœurs, comme cela se faisait avant. Les femmes ne sortaient plus dans la cour ou aux alentours des chaumières sans endosser le hidjab et se couvrir entièrement la tête avec de grands foulards. Les hommes ne s'arrêtaient plus pour les saluer et échanger des nouvelles. Il était interdit aux femmes d'adresser la parole aux hommes, ni de les regarder de face. Elles devaient baisser les yeux et s'éloigner le plus

répliquer ne serait-ce par un marmonnement. Elle l'avait fait une fois, une seule, et avait reçu une gifle et un coup de pied au ventre qui l'avait plaquée contre l'armoire. La glace s'était fissurée et mon père ne voulut pas la remplacer pour qu'elle reste un témoin qui lui rappellerait son insolence. Restait ma grand-mère ! Elle était malade et se plaignait tout le temps de maux de tête. Mon père l'accompagnait souvent à l'hôpital et lui achetait des médicaments. Quand je lui ai parlé de l'interdiction de mon père, elle a haussé les épaules, m'a souri de sa bouche édentée, et a répété son énième sage conseil. « Ne te presse pas ma petite Safia ! Bientôt tu grandiras, tu réussiras dans tes études. Tu seras enseignante, ou peut-être médecin ! Qui sait ce qu'Allah nous réserve dans cette vie ? Tu pourras aller où tu voudras. Tu auras, *In Cha'llah*, un mari qui te chérira et tu seras comme cette reine, tu auras un palais et des servantes... » Qu'Allah puisse t'entendre grand-mère et exaucer tes vœux ! Que puis-je dire ou faire de plus ? Rien, sinon attendre que de grandir et de prendre ma revanche sur la vie. En ce temps-là, c'était facile à dire. Le rêve était permis. Je pouvais allègrement m'imaginer en reine trônant sur un royaume sans frontières, prendre mes désirs pour des ordres qu'un contingent de serviteurs se presse de réaliser. Mais mon médiocre quotidien ne ratait aucune occasion pour me rappeler les innombrables interdits qui se dressaient tels d'horribles cauchemars devant n'importe quelle initiative de s'écarter des prescriptions qu'une fille de bonne

La réponse de mon père m'a d'abord troublée. De quelles divinités parlait-il ? Moi, je ne connaissais pas Cherchell même si on l'évoquait souvent autour de moi, surtout son lycée où les élèves qui réussissent à leurs brevets sont envoyés poursuivre leurs études jusqu'au bac. On parlait de Cherchell comme étant une belle ville, accueillante, avec une large place ombragée surplombant un port plein de bateaux de pêches, et une mirifique plage où on pouvait, en été, voir du haut du promontoire, des baigneurs plonger dans l'eau claire et tiède, et se prélasser sur le sable chaud. Et mon père venait de m'apprendre qu'il y avait un musée des antiquités. Comme tous les élèves de notre collège, surtout les filles, je rêvais d'y être affectée, et pour cela, il fallait d'abord bosser, veiller, bien étudier pour avoir l'examen du BEM. Mais ce jour-là, j'étais surtout triste de ne pas pouvoir participer au voyage, moi qui avais longtemps rêvé de me trouver en face du tombeau, d'en faire le tour comme ma grand-mère, de m'asseoir sur un des rochers et de contempler la mer. Je bouillonnais dans mon for intérieur ; je voulais dire à mon père qu'il avait tort, que personne n'avait parlé d'adorer cette reine ou de se prosterner devant des divinités de forme humaine. Je me suis plainte à ma grand-mère, car ma mère, je le savais depuis ma tendre enfance, n'avait aucun pouvoir sur mon père, au vu de la façon dont il la réprimandait pour des futilités, allant même jusqu'à la traiter d'ânesse, de vache. Et elle se faisait toute petite, essuyait ses larmes, mais n'osait jamais se défendre,

le visiter un jour et d'en savoir plus sur cette reine admirable. Et ce que je découvris plus tard dépassait, et de très loin, tout ce que l'imaginaire d'une petite fille avait pu façonner.

La première fois où l'occasion m'a été donnée de visiter le mausolée de ma reine préférée, ce fut au cours d'une excursion que notre collège voulait organiser sur ce site historique. Le directeur était venu en classe nous en informer. Il fallait avoir l'accord des parents et participer au financement de la location du bus. Je suis rentrée en courant rapporter la magnifique nouvelle à ma grand-mère, espérant avoir d'autres informations sur cette illustre reine. Mon père, à qui j'ai demandé de l'argent, a carrément refusé ma participation au voyage. « Qu'allez-vous faire là-bas, m'a-t-il répondu ? Ce sont des vestiges de mécréants, des adorateurs d'autres divinités qu'Allah. Votre directeur doit être un communiste, un *kafer*, pour qu'il pense à vous emmener au tombeau d'une chrétienne ! La prochaine fois, il vous emmènera vous recueillir devant les statues romaines du musée de Cherchell que l'État hypocrite protège en dépensant de l'argent qui normalement doit servir à construire des mosquées pour les croyants. Mais ce n'est qu'une question de temps ! Viendra le jour où toutes ces statues seront détruites et jetées à la mer, et ce tombeau chrétien dynamité et rasé, et à sa place on érigera une immense mosquée où seul le nom d'Allah et de son envoyé Mohamed seront invoqués. »

D'abord, il prit peur, pensant que la chèvre disparue n'était qu'un djinn maléfique qui rejoignait chaque nuit sa famille habitant à l'intérieur du tombeau. Il retourna à son troupeau qui attendait benoîtement l'ordre du retour. Durant la nuit, il élaborait divers scénarios et s'entremêla les idées dans des conjectures alambiquées afin de déchiffrer l'énigme de la disparition de la chèvre. Concernant les djinns qui habiteraient à l'intérieur, il pensa qu'ils n'étaient là que pour garder le trésor de la reine. Car lui aussi avait entendu parler d'un trésor caché dans le mausolée, et que personne n'avait réussi à trouver. Le berger eut la chance de sa vie. Le lendemain, il put s'engouffrer par la porte ouverte avec la chèvre, et Dieu seul sait ce qu'il découvrit comme trésor et ce qu'il put emporter avec lui en ressortant. Et bien sûr, le chevrier devint très riche. Il quitta les chèvres et la campagne pour s'installer en ville et devint un grand et respectable commerçant.

— Quel chanceux berger! dis-je en soupirant et en lançant mon regard ébahi vers le mystérieux tombeau que le soleil radieux du matin rendait plus imposant.

Depuis ce jour, je ne regardais plus ce monument comme un amas de rochers inertes, abandonnés sur la crête de la colline, à la merci du vent marin. Les histoires racontées par ma grand-mère que mon imaginaire d'enfant composait et recomposait sans cesse, l'ont métamorphosé en livre d'images où je pouvais lire et voir selon mon bon plaisir. Mais je ne pouvais rester sur ma faim. Je rêvais toujours de

— Les lions? Il y en avait ici des lions? Dans notre région?

— Oui ma fille, c'est ce qu'on raconte aussi. Et les chasseurs venaient de loin pour les tuer, pour faire de leurs belles fourrures d'élégants manteaux de femmes, ou les capturer pour les vendre dans des pays lointains. Donc, ce berger passa une nuit triste et se promit qu'à l'avenir il surveillerait son troupeau et ne laisserait aucune bête s'éloigner ou s'attarder. Mais qu'elle ne fut sa surprise quand le lendemain, alors qu'il était aux alentours du tombeau, sa chèvre réapparut au milieu du troupeau comme surgie de sous terre! Il n'en crut pas ses yeux! Il s'en inquiéta un instant puis prit sa flûte et se mit à entonner des airs joyeux pour oublier sa mésaventure. Deux jours de suite, la même chèvre disparaissait le soir et réapparaissait le lendemain. Alors, le berger décida de la surveiller de très près pour découvrir le secret de ces mystérieuses disparitions/apparitions. Juste avant que le soleil ne caresse la mer pour aller se reposer lui aussi, déposer sa chaleur dans l'eau froide de la nuit, et que le berger ne commence à rassembler son troupeau, il vit la chèvre quitter ses sœurs et descendre par un petit escalier. Il la suivit à pas feutrés, le cœur battant la chamade. Elle poussa le mur avec ses cornes et une porte s'ouvrit. Elle entra et la porte se referma aussitôt. Il descendit les marches d'escalier et tenta lui aussi d'ouvrir la porte. Rien ne bougea. Il eut beau pousser de ses mains et frapper de ses pieds, rien n'y fit. Le mur restait de marbre. Il tendit l'oreille, aucun bruit ne se faisait entendre.

fois l'an, lors de la *waâda* qui se tient toujours après la récolte de blé. On dit aussi que le tombeau recèle un grand trésor. Tous les bijoux de la reine ont été enterrés avec elle. Et tu sais que les rois et les reines étaient riches. Ils possédaient des caisses entières pleines d'or, de diamants et de pierres précieuses. Beaucoup de personnes et pas des moindres, des rois, des chefs de guerre, ont essayé par tous les moyens de s'en emparer. Sans succès. Certains ont utilisé des bombes pour défoncer les murs et trouver les portes secrètes qui mènent au cercueil funéraire et à la chambre du trésor.

— Et aucun d'eux n'a trouvé le trésor de la reine ? me suis-je empressée de demander.

— Si. On raconte qu'un berger a découvert l'entrée de la cache au trésor grâce à sa chèvre.

— Sa chèvre ?

— Oui ma chère Safia. C'est ce qu'on raconte.

— Et comment une chèvre peut-elle trouver la porte secrète d'un tombeau ?

— Le berger avait l'habitude de faire paître son troupeau tout autour du mausolée. Le terrain regorge d'herbes, de buissons, d'arbustes où les brebis aiment gambader et brouter. Un jour, le berger, en rentrant chez lui le soir, constata qu'une chèvre manquait. Il pensa qu'elle s'était probablement éloignée du troupeau et qu'un loup l'avait dévorée. Ce sont des choses qui arrivent souvent avec les troupeaux des bergers. Encore que dans le temps, notre région était infestée d'animaux sauvages comme les lions, dit-on.

— Ton grand-père, hélas, ne quitte plus le douar depuis longtemps déjà. Même le village d'en bas, il ne le visite plus, surtout depuis que ses fils ont grandi et commencé à s'occuper eux-mêmes des achats.

— Autre chose grand-mère? Après cette visite, as-tu été guérie? As-tu eu des enfants?

— Bien sûr ma petite-fille! Sinon comment serais-tu là devant moi aujourd'hui, toi la fille de mon fils?

— Oh, c'est vrai! dis-je confuse, consciente de ma piètre question.

— Ma grand-mère s'est refermée sur elle-même pendant de longues secondes de méditation, le regard absent, avant de se tourner vers moi et d'ajouter :

Je ne sais pas si c'était à cause du remède que m'avait prescrit la vieille Mesura, des infusions de plantes que j'avais bues pendant des semaines ou si c'était la baraka de la Roumia que j'avais visitée. On raconte beaucoup d'histoires sur ce mystérieux tombeau.

— Des histoires? De quel genre? Raconte-moi grand-mère!

— On raconte que le tombeau était un lieu de pèlerinage pour les femmes qui demandaient la bénédiction de la sainte reine. Mais que nous, les musulmans, on ne peut pas le faire, parce que cette reine est une *roumia*, une chrétienne. Nous avons nos propres saints, comme Sidi Amar, notre ancêtre béni, que tous les habitants honorent au moins une

D'ailleurs, je me suis assise sur l'un d'eux en face de la mer qui était ce jour-là brumeuse, avec des vagues écumeuses qui formaient des rangs serrés, déferlant vers le rivage. La brise marine, rafraîchissante, avait fini par me réveiller complètement. Et je serais peut-être restée là à contempler le mouvement des vagues, à écouter le bruit de leur fracassement contre le récif rocailleux, jusqu'au coucher du soleil, si ton grand-père ne s'était soudain réveillé, a scruté l'horizon et murmuré qu'il était temps de rentrer chez nous. En route, je lui ai demandé comment ces immenses rochers avaient pu être hissés jusqu'au sommet du tombeau. Il m'a dit qu'il avait entendu dire que ceux qui l'avaient construit étaient des hommes plus grands que nous, des géants. On les appelait *Erroumane*. Ils ont vécu au temps du prophète *Souleymane*. C'est lui qui les a vaincus et leur a rendu leurs tailles d'humains normaux. C'est vrai qu'ils étaient des géants ces gens-là ! Sinon, comment auraient-ils pu hisser ces grands rochers et les poser les uns sur les autres jusqu'au sommet qui était très haut, qui dépassait largement la taille de l'homme ?

— Oh grand-mère, moi aussi je voudrais aller là-bas pour voir ce tombeau de plus près !

— Un jour, peut-être, ma petite Safia ! Tu es petite, tu grandiras, tu voyageras et tu pourras faire plein de bonnes choses...

— Moi, je voudrais seulement visiter le tombeau de cette reine. Mon grand-père pourra-t-il m'y emmener ?

et en faisant quelques pas, mon corps que je traînais derrière moi depuis seulement quelques minutes telle une charrue sillonnant une terre aride est devenu tellement léger que je me sentais capable de courir, là sur-le-champ, jusqu'à la mer. Et le malaise qui m'avait étourdie depuis mon départ de chez la vieille Mezhoura s'est aussitôt dissipé. Elle m'avait fait ingurgiter un tas de lotions, tirées de plantes et d'herbes au pouvoir de guérison avéré, qu'elle avait elle-même ramenées spécialement de la Sainte Mecque pour en faire bénéficier les habitants de son pays. En attendant mon tour dans le patio ombragé par un beau citronnier et un immense figuier, j'ai entendu des femmes louer ses mérites, raconter ses miracles, évoquer des exemples de malades qui étaient arrivés impotents et qui étaient ressortis de chez elle dans une forme de mulet. J'ai profondément souhaité être du lot des malades guéris. D'un coup, je me suis sentie d'aplomb, en superbe forme, et mes pas étaient devenus plus fermes et rapides. J'ai terminé le tour avec plus d'aisance. Tout était tranquille. Ton grand-père était toujours enveloppé dans sa Kachabia et continuait son sommeil comme s'il était chez lui, dans son coin favori près de la meule de foin, et l'ânesse broutait l'herbe dans une sérénité imparable. La marche autour de l'immense amas de rocher m'a revivifiée et j'ai écarquillé les yeux pour mieux apprécier la beauté du site. J'étais émerveillée par la grandeur du mausolée, et surtout par les énormes rochers rectangulaires avec lesquels on l'avait construit. Il y en avait beaucoup et partout, jetés pêle-mêle, jonchant le sol tout autour.

reposer, reprendre des forces. Comme je savais que Sidi Rached était loin, que Lalla Mezhoura recevait beaucoup de malades venus de partout quêter ses miracles et que probablement nous allions y passer la journée, j'avais, la veille, préparé de quoi manger. Ton grand-père s'est rassasié. Il avait, ce jour-là, un appétit d'ogre alors que moi, avec le malaise qui me rongait le corps, j'ai à peine pu avaler deux ou trois bouchées. Ton grand-père s'est étalé à l'ombre d'un rocher et a piqué une sieste. Au début, le vertige a brouillé ma vue, je n'ai pas pris conscience du merveilleux endroit où je me trouvais. Je suis restée longtemps assise puis je me suis levée et j'ai marché. J'ai fait le tour du tombeau. Il était vraiment immense. L'endroit était désert et silencieux. Seul le sifflement léger d'un vent de mer se faisait entendre. J'ai marché doucement, le regard occupé par les grands rochers qui s'étagaient vers le haut, puis par le bleu azur apaisant de la mer et du ciel, et ensuite par la verdure reposante de la plaine qui s'étendait à perte de vue. À un certain moment, et comme je n'arrivais pas à contourner la large circonférence du mausolée afin de rejoindre le lieu où j'avais laissé ton grand-père et l'ânesse, j'ai été soudain prise de panique. J'ai regardé derrière moi, j'ai voulu retourner sur mes pas. Mais la brise rafraîchissante de la mer agitée qui s'étalait vers le bas, derrière la plaine longeant la côte rocheuse, m'a fouetté le visage avec une force telle que mon corps en entier a frémi. J'ai fermé les yeux et j'ai laissé le vent marin m'imprégner totalement. En les ouvrant

agricole, de nous donner des tâches à accomplir. Je me souviens qu'elle était affairée à jeter le reste du repas de la veille aux poules amassées dans le poulailler ouvert aux quatre vents. Elle a posé à terre la marmite, s'est redressée de sa taille courte et svelte, a dirigé son regard flétri vers le versant illuminé par le soleil levant dans un ciel limpide, a poussé un grand soupir avant de répondre :

— Cet amas de rochers que tu vois là-bas ma petite Safia, c'est le tombeau d'une reine qui a vécu ici dans les anciens temps.

— Un tombeau aussi grand !

— Oh, ma petite fille ! D'ici il paraît très petit. Si tu le voyais devant toi, il est immense.

— L'as-tu visité ?

— Oui. Une fois, il y a longtemps, et par hasard. J'étais mariée depuis trois ans et je n'avais pas d'enfants. Des années avant la guerre d'indépendance, j'avais à peine seize ans. Ton grand-père m'a emmenée à Sidi Rached, un village situé en contrebas, derrière le mausolée, voir une vieille pythonisse qui avait la réputation de rendre les femmes fécondes. On venait la consulter de loin. On était partis de bon matin, moi sur l'ânesse et ton grand-père à pieds. Au retour, j'ai été prise d'une nausée qui m'a déséquilibrée et j'ai failli tomber du haut du dos de notre docile ânesse. Difficilement, j'ai mis pied à terre et j'ai vomi jusqu'à sentir mes entrailles se déchirer. J'avais des vertiges et je voyais trouble. Nous étions près du tombeau et ton grand-père m'a suggéré de faire une halte pour nous

LA FILLE DE LA LUNE

Mohamed Sari

De tout temps, en sortant de notre chaumière située sur le versant ouest du mont Chenoua, je m'arrêtais pour admirer l'amas géant de rochers qui se dressait majestueusement au sommet de la colline d'en face. Il ressemblait énormément à la meule de foin que mon grand-père, aidé par mon père et mes oncles, érigait chaque été sur la plateforme derrière notre maison. Une proche ressemblance, sauf que notre meule était trop petite par rapport à cette autre meule géante, d'autant plus que, d'après ma grand-mère, ce qu'elle contenait, ce n'étaient pas des bottes de foin, mais de grands rochers qu'un homme, à lui seul, ne pouvait soulever. Mais, si la meule géante était à portée de vue, elle était loin de nos pas. Elle se dressait sur une colline, de l'autre côté de la route où passaient les voitures et qui serpentait entre les deux allées de platanes tout en bas de notre douar. Un jour, en voulant en savoir plus, j'ai harcelé de questions ma grand-mère qui avait des réponses à tout, contrairement à mon grand-père qui ne cessait de nous admonester, de nous interdire l'accès aux champs et de toucher au matériel

LES PIERRES QUI SONT DES ÉTOILES

— Les pierres-étoiles, cher Rachid, c'est véridique comme du Paul Eluard. Mais il n'y a pas chez les Grecs des mythes de réincarnation des âmes en étoiles?

— Attendez voir...

— Pas besoin de chercher sur *google*, Ahmed : *google*, l'arme du grand capital je te rappelle... pas besoin, car je connais le mot : *catastérisation*, qui désigne la métamorphose d'un être en étoile ou en constellation.

— Ta théorie va donc jusque-là ? Les pierres sont des âmes revenues parmi nous ?

— Uniquement les très vieilles, très très vieilles pierres, et cela marche pour les âmes qui ont été beaucoup aimées. Il faut juste un peu d'habitude pour percevoir qu'elles brillent encore. Et voici ce que je nous souhaite : étoiles devenues, nous réatterrissions parmi les vivants. Forcément, puisque tous les trois nous nous serons beaucoup aimés. Venez que je vous embrasse, insupportables et fidèles amis.

— Revenus sur terre... pour porter témoignage ?

— Et voici – un coup pour Denis, un pour Ahmed – à quoi sert le patrimoine : témoigner de ce que nous fûmes, de ce que nous sommes. Et que les hommes (ils ne sont pas faits pour ça), et que les hommes ne comprennent pas.

— Ce gouvernement n'a pas de vision, il ne fait que de la tactique: il te convient car il répond à vos attentes, mais dans les faits, il se comporte en gentil coordinateur de la grande foire mondiale aux affaires. On nous a martelé: l'Algérie doit s'ouvrir, elle crève d'avoir si longtemps vécu en vase clos. L'ouverture, je veux bien. Si l'on sait répondre aux questions: comment, à quel prix? Mais ce qu'on nous sert, c'est la fluidité. Tout faire pour que l'argent circule... Voilà ce que je pense du Grand Changement.

— Vous êtes sans poésie, les deux. Je dois donc conclure à ma manière. Vous ne trouvez pas que le Medracen ressemble à une soucoupe volante? J'ai une théorie. Il y a très longtemps, les pierres étaient des étoiles, et en s'agrégeant elles ont formé toutes sortes de masses, des météorites bien sûr, et dans les moments de pure symbiose, de beaux navires ronds de l'espace venus se poser sur terre. Parfois, l'atterrissage a été difficile, et en rebondissant les belles courbes sont devenues des arêtes à vif... voyez les Pyramides, manifestement c'est raté! Ici, tout en douceur, ce fut une perfection.

— On reconnaît le géologue saisi par le vertige des espaces célestes! Et qui dit réalité céleste, dit musique. Pourrais-tu nous dire: pendant le voyage, quelle mélodie accompagnatrice venait des sphères lointaines?

— Je te laisse deviner quel est mon groupe de rock préféré!

qui se construit, par amour et intérêt. Je pense qu'il faudrait revoir les critères de la résidence et mettre en « une » l'amour et l'intérêt.

— Heu, doucement là-dessus, tout de même. Nous montrons beaucoup d'amour et d'intérêt pour la vie française. Et que je sache, à Paris ils n'ont pas ouvert les frontières à tant d'Algériens amoureux!

— Je peux dire un mot? Par ma formation, je ne suis peut-être pas très porté sur le patrimoine. Ou alors ce qui m'intéresse est: que fait-on du patrimoine pour donner au peuple ce dont il a besoin, spirituellement, économiquement. Le tourisme que tu nous vantes, Denis, peut n'être qu'une approche très dégradée du patrimoine. Pour le moment, on en voit les effets positifs, mais sera-t-on toujours aussi prudents? Le patrimoine comme planche à billets, on sait ce que ça donne. Ce dont je rêve pour les petits Algériens, c'est une éducation qui *actualise* le patrimoine. Et de ceci, nos dirigeants ne se soucient pas.

— C'est du boulot, et ce boulot c'est à tous de le faire. Demandons moins aux gouvernements et davantage à la société... Et voyez encore ce point positif: les associations sont aujourd'hui libres de travailler, elles sont éligibles à des aides. Un gouvernement qui décide de ne plus faire lui-même, mais d'accompagner, réguler, voilà un grand changement.

— Mais, je vous en prie, restons fidèles à l'esprit des lieux : que nous dit le Medracen sur notre petite affaire ?

— Je pourrais continuer la provocation en disant que les technocrates du présent...

— De simples relais du grand business...

—... admettons, Ahmed... donc que ces gouvernants au petit pied devenus les apôtres de la normalisation ont du moins commencé à changer ce qui devait l'être. Eux par exemple se soucient du tourisme, de son développement. Et je note que le Medracen se porte mieux, depuis que le besoin touristique s'est invité dans le sujet. Les réfections ont commencé, les fouilles ont repris. Et nous pouvons désormais pique-niquer sur le toit du passé. Ahmed, tu ne réponds pas ?

— Ahmed est inconsolable, depuis qu'on tente de lui ôter sa raison de vivre : vilipender le grand Capital. Moi, je suis plus terre à terre, je dénonce les petits capitalistes qui prospèrent, comme à chaque fois qu'une grande commotion a eu lieu !

— Si je vois mon seul avantage, je rajouterai : et on permet enfin aux Français de s'installer et d'acheter des biens dans ce pays qu'ils avaient toutes les raisons de détester, et où ils veulent aujourd'hui apporter leur petite pierre. Je ne dis pas qu'ils veulent « aider l'Algérie », ce serait factice. Mais ici, désormais, ils veulent vivre et contribuer à ce

l'on a les moyens de toujours définir avec exactitude la ligne à ne pas dépasser, pour ne pas se renier. La concorde avec la France, pourquoi non ? L'histoire nous y porte autant qu'elle nous en éloigne, et la nation en a besoin pour se renforcer, mais elle a besoin aussi de savoir ce qu'elle n'est pas prête à accepter.

— Jusque-là, rien à dire. Ahmed tu es en forme !

— Ahmed, bois un coup. Tu noteras que j'ai versé dans ton verre un breuvage non conventionnel, tiré de ce beau sac plastique à l'enseigne des Galeries modernes. Les jeunes serveurs ici sont plus ou moins complices, mais on ne cherche pas à les mettre mal à l'aise. Certains parlent d'hypocrisie, ils n'y connaissent rien. C'est ce qui arrive dans une société à plusieurs vitesses, où il s'agit de concilier l'inconciliable, mais nous les Algériens on sait comment y faire : on fait semblant. Et faire semblant n'est rien d'autre qu'un peu de ruse enveloppée dans une stricte courtoisie. Bois donc un coup, Ahmed, je vois que la cire a fondu !

— Et je lève mon verre à la concorde introuvable, qui nous promet encore de belles heures de querelles intestines, et heureusement !

— Et tiens, en passant : je vous signale que nos modernes technocrates sont pour la plupart au jus d'orange. Encore une qualité que nous avons perdue avec nos anciens. Ils buvaient droit en encourageant les prêches sinueux.

vue – celui des sociologues. Car le point de vue du militant et toute son intelligence est l'action, l'action avant tout. Que puis-je faire pour avancer? Même en situation de conditionnement, d'aveuglement, même dans l'erreur, que puis-je faire? C'est ce qui sépare à jamais les intellectuels des militants. Et j'ai choisi.

— Cela me paraît très sensé.

— J'ajouterai qu'il y a le passé pour cela. Nous sommes faits par tous les événements déjà écoulés, diras-tu, cher Denis. En tant qu'Algérien, je suis donc fait par la révolution de nos pères. En tant qu'Algérien, je suis tenu par cette obligation ardente: être digne de ce qu'ils ont été. Cela ne m'oblige pas à gesticuler en scandant à perpétue: indépendance, souveraineté, résistance, constantes nationales! Mais cela fait que l'engagement est dans mes gènes. Et qu'une certaine forme de passion nationaliste m'habite, car je suis né là-dedans. Plus les nations sont peu sûres d'elles-mêmes, plus il y a de nationalisme, c'est entendu. Mais laissez-nous ce moment de la création, de notre création, car je n'ai pas le sentiment que nous en ayons fini. Je n'aime pas plus que vous les multiples corruptions du nationalisme, mais je la cajole encore - la nation - comme une œuvre d'art, toujours à parfaire. Les gens qui se sont trop attardés au pouvoir ne chantent plus pour la nation, ils chantent pour eux-mêmes. J'ai donc combattu ce régime, au nom de la nation. Et au nom de la nation, je reste vigilant sur les conditions qui peuvent préserver sa construction. L'ouverture au capital étranger? Pourquoi pas, si

niment respectueuse du moment présent. Sans lui, que deviendrait-elle? Il faut avoir un respect sacré pour l'événement.

— Stop! Ahmed demande la parole! Il a levé la main! Un miracle est survenu. Parle Ahmed, nous boirons tes paroles comme un élixir, ô toi le revenu parmi nous!

— Je vous passe vos singeries. Mais je ne vous laisserai pas dire que le peuple n'est pas bon, car il l'est par décret universel et onction de sa divinité majestueuse. Si quelque chose cloche, ce n'est pas le peuple, c'est ce qu'on fait en son nom.

— Nous voilà bien...

— Sans blague, maintenant. Je suis intervenu, car je sais ce que vous alliez dire. N'est-ce pas que vous alliez dire, convenir, que tout pays a les dirigeants qu'il mérite, qu'en dénonçant le système les Algériens n'ont pas bien saisi qu'ils dénonçaient *ce qu'ils étaient devenus, avec le système*. D'ailleurs, le mot dit exactement ce qu'il contient: ce qui fait système; où tout le monde participe plus ou moins. Avant d'être militant, vieux frères, je suis sociologue. Et je sais ou du moins on a essayé de m'apprendre que la politique est la résultante des milliers d'actions qui se font dans la société, et qu'avant de s'attacher à la politique il faut savoir décrire les conditions de vie des gens, et leurs actions – le *bas*, comme tu dis. Mais comme je suis militant par-dessus tout, comme l'un de nous a eu l'amabilité de le rappeler, je rejette ce strict point de

des techniciens sans ampleur, pas des héros et c'est tant mieux, mais ils doivent se coltiner les multiples dysfonctionnements de la machine et il est sûr qu'ils n'y arriveront pas tous seuls. Arrêtons de regarder ce qui se passe en haut, voyons le bas. Le bas c'est une société qui regimbe, qui rit et pleure en un instant, qui est un peu perdue, qui cherche à se recréer un mode de vie, qui doit s'entraîner à se prendre en main, à connaître le monde dans lequel elle vit et s'y adapter. Je peux dire une horreur ? En voyant se masser les foules devant la Grande Poste, avec leurs banderoles colorées, je rougissais de plaisir, et je verdissais le moment d'après en me demandant : tous, ils vont accepter de se retrousser les manches, quand demain il faudra atterrir ? Parmi tous ceux qui défilent, combien ont profité du système, qui n'imaginent pas à quel point ils se sont coulés dans le moule, grappillant un avantage ici ou là. Ils vont se faire à la compétition, à la demande de compétence ? Et en voyant qu'ils n'y arrivent pas, qu'ils ne s'en sortent plus, ils ne vont pas désigner l'ennemi intime le plus commode, la femme, la sœur, la fille du voisin, et si cela ne suffit pas vont honnir l'Occident qui a donné des idées biscornues à leurs femmes ? Ô l'Occident sacré, ce déversoir de toutes les frustrations !

— Et tu devinais juste. On en est là, plus ou moins. Avec nos modernes dirigeants en prime.

— Mais j'ai chassé ces idées, car comme tu sais j'aime l'histoire. Et l'histoire, je le répète, est infi-

il paraissait logique que nos dirigeants, après cela, seraient des héros. Bon, bien, deuxième déconvenue après celle de l'indépendance. Ces héros sont de la catégorie qui s'use vite. Ceux qui sont là se contentent d'être « modernes ». Fatalement, on nous a tellement dit que l'Algérie souffrait d'une gestion archaïque du pouvoir, désormais tout le monde en rajoute sur le « moderne ». Des gestionnaires, en conséquence, comme les autres, ailleurs, qui te répondent par courbes et chiffres si tu as le malheur de leur désigner une pauvre femme chassée de chez elle. Parfois, je me prends à regretter le bon vieux temps des apparatchiks qui te servaient leur langue de bois comme un produit inusable, un truc-réflexe qui sentait bon l'authenticité revêche. Tu pouvais reconnaître un ministre algérien à dix kilomètres: c'était le type inaltérable, un bloc de mauvaise humeur que tout le monde fuyait. On pouvait se dire: ça c'est de chez nous! Aujourd'hui? Ils courent les forums, parlent léger, glissent, transparents comme leur *powerpoint*.

— Pardon d'être prosaïque: des gens qui travaillent comme le commun des mortels, cela peut être reposant. Des gens qui ne se croient pas obligés de dénoncer la mainmise des « puissances étrangères » dès qu'un moteur de mobylette s'enraye. Qui font des plans pour rendre le pays à sa normalité, y compris en développant l'investissement étranger — ce qui j'en suis sûr vous fait monter des aigreurs d'estomac. On ne se refait pas, pas si vite! Pour résumer: les dirigeants nouveaux sont

apprenez les bonnes manières ; s'il faut tout vous dire, vous sentez un peu trop *le rastaquouère*. »

— Oui, j'avais eu un flash un jour, en écoutant un vieux pied-noir raconter ça. Ces gens ont été de vrais déracinés. Surtout les pauvres, ceux souvent qui ont été les *violents* de l'affaire : ils se disaient qu'ils n'avaient pas le choix, qu'une fois chassés ils allaient replonger dans un long passé européen de pauvreté, de privations, d'humiliations, tout ce que leurs familles avaient fui. J'ai imaginé qu'on aurait pu leur décerner, côté algérien, un certificat d'exilé, une sorte de nationalité algérienne d'honneur. Pour appartenance à la catégorie de ceux qui, toujours, prennent les coups... Ça aurait eu de la gueule. Mais c'était encore l'époque où nos gouvernants ne se souciaient pas trop de faire des choses « qui aient de la gueule ».

— Et maintenant ? Après la révolution souriante ?

— Je parle sous le contrôle d'Ahmed qui a des opinions politiques très arrêtées. Ahmed, tu lui voles sa femme, il te répond : camarade, c'est déloyal pour un militant de faire ça. Un autre te fendrait la joue avec son couteau, lui, il brandit le petit livre rouge. Il se voit toujours comme un soldat du peuple. Ne fais pas cette tête, Ahmed ! On s'amuse. Pour en venir à la période présente – et sous notre grande figure tutélaire de Medracen, qui sait comme les choses humaines sont factices et passagères –, je te dirai qu'on est tous déçus. Nous avons été héroïques,

formule : la France, l'Algérie, c'est pour chaque côté « une nation et demie ». Eh bien je pense qu'une relation apaisée avec la France prépare l'Algérie à affronter le nouveau monde, à se réveiller du long dialogue morose avec un fantôme, celui de la colonisation, qui n'est qu'un monologue. Il y a longtemps que les Français ne se savent plus colonisateurs et ne participent plus à la discussion.

— En quoi ils ont tort. On ne se prive jamais sans dommages d'une partie de soi. Ce qui s'appelle : amputation.

— Et c'est vrai ! Va dire aux jeunes Français qu'ils ont été des colonisateurs, qui plus est des passionnés de la chose, ils vont te regarder drôlement. Ah bon, vous êtes sûr ? Et ça nous regarde ?

— Je leur dirai : regarde, jeune homme. Tous ces étrangers chez toi, ils viennent bien de quelque part. On a dû leur dire qu'ils ont une origine géographique. Il faut les prévenir : c'est une origine historique. Vos immigrés sortent de l'histoire, et c'est plus profond que la Méditerranée !

— Je n'ai jamais nié qu'une difficulté de nos rapports vient de là. De ce qu'en France on regarde les anciens colonisés en étrangers comme les autres. C'est humiliant pour des cousins de constater qu'on ne les traite pas tels des membres de la famille. Remarque bien que les Pieds noirs ont vécu ça en France : « mettez-vous là puisqu'il le faut, mais

— Ouf, d'ailleurs ici on respire, vous avez senti cette brise d'un coup? On dirait qu'elle vient du monument, qu'un souffle émane de cette colline faite par les hommes, que c'est un signe qu'il nous envoie.

— Ce qui me plaît dans le Medracen, c'est qu'en effet il est muet comme un tombeau. Il ne dit pas d'où il vient, par exemple. Je le ressens comme toi, je ressens sa capacité de résistance muette : il a traversé les plus inéquitables des phases historiques. La romaine, qui se croyait la plus grande. L'islamique, qui se disait première et dernière. L'ottomane, qui se prenait pour le monde. La française qui se croyait — comme les autres — le tout et l'achèvement. L'algérienne qui s'est crue la nouveauté même! Le Medracen n'a pas plié. On n'avait pas un regard pour son moment d'histoire — ne ressemblant à rien de tout ceci? Il tenait bon. On lui racontait des « histoires » qui ne le concernaient pas? Il regardait ailleurs. Non, c'est un sacré gars!

— Pourquoi pas une femme?

— Laisse-moi rêver. À Tipaza, on a une femme, une Cléopâtre. Ici on a notre Alexandre.

— Bon, mais je n'ai pas fini.

— On n'en doute pas.

— Je m'exagère peut-être l'importance de la France pour l'Algérie, l'importance de la relation avec la France. Mais tu connais comme moi cette

de conneries grandiloquentes, même si je sais que je vais continuer à en lâcher une, ici ou là !

— C'est un gros effort que tu nous demandes là, car je vois bien que dans ton esprit la grandiloquence ne nous a pas épargnés, nous *spécialement*.

— Et c'est normal. Vous aviez une nation à const-ruire. Dans ce cas-là on ne regarde pas trop aux accessoires utilisés.

— Trop généreux, merci.

— Ce que je demande aux Algériens (et là une parenthèse : puisque c'est ici que je me sens bien, en Algérie, et que le droit des peuples à disposer d'eux-mêmes n'a pas tout à fait écrasé le droit à circuler soi-même, et que malgré la distribution de permis de séjour qui sont aussi des permis de penser, j'entends bien y demeurer à nouveau et contribuer à la cause commune), ce que je leur demande est de commencer à faire cet effort. Ne pas être dupes de votre histoire. Vous devriez pouvoir commencer à sortir un peu de la duperie, n'est-ce pas. En tant qu'Algériens et sûrs de l'être, qui va le nier maintenant ? Et en tant qu'Algériens qui viennent de faire une révolution magnifiquement composée – c'était un esthète le concepteur, un vrai artiste, je dirais le Wagner de la mobilisation de masse – donc en tant qu'Algériens qui ont recouvré le plein usage de leur fierté, vous pouvez commencer à lâcher un peu l'histoire, la laisser respirer.

abusera ? Dis-le à notre ami français. Notre blason c'est : j'abuse !

— Pas différents, c'est sûr. Chacun se fabrique sa petite histoire portative. Les Français sont persuadés qu'ils n'ont fait, avec innocence et grandeur, qu'apporter les lumières aux autres parties du monde, et que les autres parties du monde sont ingrates. Qu'est-ce qu'ils ont ces Algériens, à toujours vouloir nous ramener au rang d'ignobles massacreurs ? On leur a apporté les PTT et le Tout à l'égout, non ? Victor Hugo et son butin de guerre ? Le problème – Français comme Algériens – c'est de s'obnubiler pour ne voir qu'une face de la médaille : oui, nous avons été misérables et glorieux, oui nous avons construit et ravagé, oui les peuples sont comme ça, oui il faut l'accepter puisque c'est nous, nous intégralement.

— Il y a un problème dans ta thèse, qui me plaît dans l'ensemble. Le problème c'est : pourquoi n'acceptes-tu pas que les peuples racontent n'importe quoi en s'affublant des habits lumineux de l'histoire, et en voyant des croquemitaines partout chez le copain ? Puisqu'ils sont *comme ça* ?

— Bien vu, touché. C'est quelque chose de retrouver les vieux amis ! Donc j'accepte aussi cela, mon bon, c'est ma croix à porter. Ma seule réponse est : accepter que l'histoire soit ce qu'elle est, et non telle qu'on voudrait qu'elle soit, c'est aussi faire vœu de piété lucide. Toute autre est l'entreprise. Je m'engage alors à faire un effort pour ne pas raconter trop

du moins un tombeau. Les géographes diraient : une butte-témoin.

— L'histoire c'est nous, mais l'histoire est aussi un sacré problème, puisque c'est l'inconnaissable. Elle s'est dissoute, de ce fait elle est splendide et ignorée, splendide parce qu'ignorée. Nous salissons l'histoire à vouloir, toujours, l'interpréter. Avec nos faibles capacités, c'est mission impossible, ou plutôt c'est le petit commerce de nos émotions et volontés furtives : on fabrique de l'histoire à la chaîne, pour justifier nos opinions. On se fait parfois très savant, pour tenir boutique. Regardez comme j'ai étudié, voyez ma belle opinion du jour ! Or, la seule chose que peut enseigner l'histoire, c'est l'acceptation. Ce qui a eu lieu a eu lieu, et nous en sommes intégralement le fruit. Vouloir accentuer ou retrancher une partie de cette histoire est l'ineptie courante. Vouloir juger l'histoire est la faribole usuelle. Non, les amis : l'acceptation seulement. On prend tout en bloc, et on essaye de vivre avec ça.

— Pourquoi est-ce que tu me regardes avec cette intensité ? Tu crains de n'avoir pas été entendu ? Tu veux dire — je le sais — que les Algériens ont fait un commerce louche de l'histoire en la pliant et repliant à leurs exigences ? Je te répondrai que oui, sans doute. Pas sûr qu'on soit très différents des autres pour ça. Ah tu veux dire qu'on a un peu abusé ? Je te le dois : oui, on a abusé, et on continue d'abuser. N'est-ce pas Ahmed, qu'on abuse, et qu'on

l'air autour plus rare et plus précieux, m'a donné d'un coup l'inspiration. L'histoire! Bien sûr l'histoire. La nôtre, qu'il faut bien dire commune. J'avais, bien ancrée en moi, l'idée qu'entre l'Algérie et la France il y avait toute l'épaisseur d'une histoire mal vécue, mal comprise. En résumant : n'importe qui de sensé pouvait, avec un peu de recul, voir le ridicule de nos querelles. D'un côté des Algériens crispés, tellement entichés de leur lutte de libération, qu'ils avaient raccourci l'histoire à ce moment de la fondation, qui précisément leur ôtait toute possibilité de voir l'histoire et d'en juger un peu sainement. De l'autre côté ces Français loufoques, persuadés que l'histoire était intégralement ce qu'ils avaient apporté ici, rajoutant un siècle au plus à la petite séquence. Les uns et les autres, enivrés de leur importance, ignorant tout de ce qui les surmontait : un monument silencieux et quasi oublié, qui se situait au point de partage des eaux, là où se divise l'humanité entre vestiges visibles et engloutissement dans l'inconnu. Qui portait sur ses flancs abîmés toute la puissance d'une longue, très longue passion de *témoigner*. Puisque les hommes ne sont que cela : ceux qui ont témoigné.

— C'est très beau, cette idée de témoignage. Je crois qu'on en a déjà parlé. Souviens-toi, tu racontais ton voyage aux Pyramides ; je te disais : qu'est-ce que c'est, cette volonté surdimensionnée de faire gloire, de laisser une trace ? Tu me disais : c'est Nietzsche, c'est la volonté de puissance, exprimée par la mort la plus fastueuse. Or le Medracen est une pyramide,

pour nous comprendre. Et nous n'avons cessé de nous mécomprendre!

— C'est une faculté qui n'est pas donnée à tous : pour bien se mécomprendre, comme tu dis, il faut être très proches. Avec les autres, ce n'est pas de l'incompréhension, c'est de l'indifférence. Pas du tout pareil.

— Je te l'accorde. Et tu sais quand j'ai pris conscience de ce qui, à la fois, nous rapprochait et nous séparait? En venant au Medracen avec toi. Tu ne t'en souviens plus, mais tu m'as alors fait le coup du « plus vieux monument berbère », en me présentant « la petite vigie de ce que nous sommes, réellement ».

— Tu souriais. Je faisais des oh et des ah, en tournant autour de cette masse de pierres menacée depuis si longtemps par l'effritement et les pillages, préservée par miracle. J'étais prêt à décerner tous les certificats d'authenticité – la berbérîté luttant contre le dévergondage de l'arabité, voilà qui me plaisait puisque je m'étais fait une image de l'Algérie diverse, autre que celle qu'on vendait en slogans. C'est là que tu as ajouté : « berbère, sans aucun doute. Mais aussi hellène, égyptien... méditerranéen! une affaire ancienne d'enracinement et de circulation, d'enracinement *dans* la circulation des hommes. De quoi nous parle-t-on aujourd'hui? ».

— J'étais resté songeur. Puis ce monticule de pierres, qui par son isolement et sa fragilité rendait

légendes. C'est que l'idée de patrimoine semble assez bien correspondre avec l'idée de l'État ou de nation...

— D'abord que faites-vous d'Al Bekri, et aussi d'Ibn Khaldoun: ils ont parlé du Medracen. Pas très algériens, je te le concède. Puis nous aussi avons eu un État, un petit siècle plus tard, et qu'est-ce que c'est un siècle! À peine le temps d'un tour des ruines à bicyclette. Le problème n'est pas tellement là. Le problème c'est: qu'avons-nous fait pour le Medracen, une fois la nation constituée? Je peux te répondre. Nous avons fait de l'idéologie, la seule « industrie industrialisante », qui dispense de faire quoi que ce soit d'autre! Ahmed ne réagit pas? Très bien, je m'explique. Puisque la nation nouvelle était arabo-musulmane, il ne convenait pas de s'occuper de l'histoire berbère et son irrégiosité notoire! Bon, je dis berbère, mais pour le reste c'est kif-kif. La Grecque, la Romaine, et on peut même rajouter l'Ottomane. Pourquoi s'embarrasser du passé quand on fait table rase pour tout recommencer? Recommencer quoi? Deuxième partie du problème...

— J'apprécie ton humour, en vérité c'est le véritable monument infracturable que les Algériens ont élevé à la face du monde. Et je le dis sans rire. Bref, j'étais un Français d'Algérie, autre point de vue particulier. Or ma vision, là encore pas très originale, a toujours été: quel dommage! Entre Algériens et Français, quel dommage... Nous sommes faits

unique, et ne suppose pas qu'on ait la capacité de regarder à demain.

— On n'a pas fait attention, je te le concède. Étant donné qu'il fallait commencer par là : le changement pour le changement.

— Et c'est juste. C'était cela le moment.

— Tu continues à tourner autour du sujet. Qu'as-tu à nous dire ?

— Je suis Français, et cela définit la position très spéciale d'où je regarde et parle. On peut ajouter que je me sens aussi un Français d'Algérie : mes parents, mes grands-parents, mes arrière-grands-parents ont vécu sur cette terre, moi pas. Mais en venant m'installer je me suis senti instantanément « comme » chez moi.

— Tu peux dire « chez moi ». Nous t'autorisons, avec Ahmed. Maintenant que le peuple a pris le pouvoir, chacun est libre d'octroyer de l'algérianité à qui il veut. C'est nous qui commandons ! Oh la douce illusion.

— Les Français d'Algérie, c'est bien connu, ont des prétentions. Par exemple ils vont te dire qu'ils sont les premiers à avoir regardé ce qui se passait avec le Medracen. Il y a eu des fouilles en combien... 1854, non ? Logique, les Français venaient avec un esprit favorable à la notion de patrimoine, tandis que les populations ne voyaient qu'entassement de pierres autour desquelles flottaient quelques

— « On », je ne sais pas qui c'est. Est-ce un « nous »... ? Ahmed en tout cas ne dit rien. Ce cher camarade Ahmed : rien de changé, toujours aussi silencieux, avec à son habitude l'air supérieur de celui qui sait et laisse causer. Une vraie figure de cire. Mais quand la cire se met à fondre...

— Ah ! Cela fait tellement plaisir de vous revoir, tous les deux.

— Après combien d'années ?

— Trois seulement. Mais quelles années ! J'ai quitté l'Algérie au moment où tout se mettait en branle, j'en aurais pleuré. Tous mes amis dans la rue à scander : « dé-mo-cra-tie, quel est ton nom » ? Ces semaines, ces mois de mobilisation, et l'impuissance que je ressentais de loin. Je regardais les photos... De temps en temps un message reçu : « on défile ». Mais vous aviez autre chose à faire qu'à entretenir le souvenir d'une amitié. Vous aviez un pays à refaire.

— On voit le résultat. Continue.

— J'ai dit ici et là : le soulèvement de l'Algérie vient de loin, en tentant d'expliquer ce que d'autres ont dit tout aussi bien ! Mais il fallait que j'apporte ma petite pierre, c'était « mon Algérie » que le monde entier semblait découvrir. Et sans beaucoup d'originalité non plus, j'ai indiqué mon inquiétude, sur l'air connu : les lendemains sont dangereux, si l'on ne sait pas analyser dans quel moment on est. C'était une bêtise. Le moment de la révolte est

tique – tu imagines, des petits Medracen en porte-clés ? Et des sacs de plage estampillés « Massinissa » ? On peut tout craindre, avec le tourisme. Mais finalement ce n'est pas mal du tout, et ce simple signe montre que les choses ont changé, sont en train de changer.

— D'une certaine manière, oui. Pas de la manière qu'on avait souhaitée, évidemment.

— Ce n'est pas anodin. J'ai connu l'Algérie plus maladroite dans la mise en valeur touristique. Soit c'était le néant : on assurait – grandes déclarations – que le moment était venu, que le pays avait besoin de développer son tourisme, qu'il était temps d'aménager, d'organiser. Puis rien, rien ne se passait jusqu'au discours suivant. Soit c'était le trop-plein : ministre ou gouverneur piqué par on ne sait quel insecte furieux, des brigades aux ordres s'acharnaient à gâter la chose par le bricolage, l'empilement, le kitsch... un classique, tu me diras, du développement dans sa version autoritaire ! Plutôt que de faire faire par les autres, par ceux qui savent et dont c'est le métier, l'État se mêlait de tout. Et orgueilleusement ratait à peu près tout ce qu'il entreprenait.

— Trop généreux ! Je vois que les chiens sont lâchés. Je pourrais te répondre ici ou là, je crains d'être assez d'accord. Mais voyons dans l'ensemble ce que tu as à dire. On répliquera le moment venu.

mémoires individuelles... égratignure sur la mer des temps... et tout ce qu'on ne devrait pas prendre tellement au sérieux après y avoir cru si fort. Car tout passe, comme dirait Ahmed que je trouve bien silencieux aujourd'hui...

— Avant de commencer, dis-nous. Qu'est-ce que tu penses de ces aménagements autour du tombeau? Sommes-nous entrés dans l'ère moderne, avons-nous droit désormais au plein emploi du mot tourisme, qui fut si souvent pour nous un mot pour rire, ou pour pleurer?

— Tu sauras tout ce que j'en pense, avec le reste! Mais oui, c'est assez réussi. Quand tu m'as dit, viens Denis, on va prendre un verre au Medracen, j'ai d'abord cru que tu plaisantais, puis j'ai craint le pire. Quoi, « ils » ont planté des boutiques là-bas, sur ce plateau vide et tellement solennel dans son abandon? Je redoutais la catastrophe, et en vérité je suis rassuré. Le bâtiment où nous sommes est beau et sobre, il respecte l'esprit des lieux, on voit qu'un architecte a travaillé, et qu'il a vu juste après y avoir un tant soit peu réfléchi. Il aurait pu toutefois éviter de placer ce plexiglas qui gêne la vue de la terrasse...

— Allons, allons, il faut bien habiller. On craint les courants d'air, nous! Mais ce soir pour les courants d'air, il faudra repasser.

— Quant aux boutiques de l'esplanade, elles ne sont pas gênantes, et je loue les organisateurs de n'avoir accepté à la vente que de l'artisanat authen-

à force de crier – comment t'es-tu reconstitué les cordes vocales, toi qui as un besoin si fort de cet instrument? Tu as tout oublié? Il ne resterait que cela, reconnais que tu t'es musclé pendant des mois avec ta petite gymnastique hebdomadaire. Et, tiens, je suis sûr que marcher dans la ville au coude à coude avec des millions d'autres a changé à jamais ta vision de ce que c'est la ville, ce que c'est la marche.

— Et ajoute: de ce que c'est le peuple! Une parenthèse: parler du peuple sans jamais le connaître, j'ai fait ceci comme tout le monde, j'ai même écrit là-dessus et j'aurais pu finir ma vie sans rien y changer. Mais j'ai appris ce qu'est le peuple, l'extraordinaire présence du « peuple ». Et la matérialisation, finalement, d'une réalité qui n'est qu'éphémère. J'ai compris, car j'ai senti: le peuple, c'est un moment, la sensation enfin de faire « un ». Le reste du temps on ne sait qu'en parler – de mémoire!

— Tu vois... Donc le peuple, donc une révolution, il n'y a pas à revenir là-dessus. Bois un coup: à la santé de la révolution, qui ne fut elle aussi qu'un moment.

— Là on est d'accord. Ensuite?

— Ensuite, nous sommes à l'endroit idéal pour vider notre sac – notez que je n'ai pas parlé de querelle! Ici dans cette buvette face au plus ancien monument d'Algérie dont les pierres plongent si loin dans la mémoire qu'elles rendent dérisoires nos

conclusion définitive ne peut être tirée. Et cette version-ci de l'histoire fonctionne très précisément comme un remède aux certitudes du passé.

On comprendra toutefois aisément, à la lecture, que le véritable enjeu de la scène se situe ailleurs : dans une amitié à cultiver. S'ils ont choisi de « tout se dire », les trois protagonistes savent dès le début, après avoir exposé leurs désaccords qu'il s'agit pour eux de « s'entendre ».

— On peut tout se dire, maintenant ?

— Ce n'est pas sûr, mais essaie !

— Mais oui puisque le temps a passé. Puisqu'une révolution est advenue. Puisque nous y voyons un peu plus clair. Et que nous brûlons de nous *dire les choses...*

— Parle pour toi mais ne t'énerve pas. Il fait trop chaud ce soir pour s'énerver. C'est fou cette chaleur, on pourrait voir des mirages s'élever. C'est comme cette montagne de pierres : est-ce un mirage ? Mais non, elle est bien là. Je confonds, c'est la chose dont tu parles qui n'existe pas. Quelle révolution, où as-tu vu une révolution ?

— C'est cela, plaisante. Mais je ne crois pas qu'il y ait de mirages à la nuit tombée. Et je vois que tu as oublié ce qui s'est passé dans ce pays. Ton corps a oublié... Tu n'as plus dans les membres les kilomètres de marche et de piétinements, bras en l'air ? Tu ne sens plus les érailements dans la voix

LES PIERRES QUI SONT DES ÉTOILES

Thierry Perret

Argument. — *Medracen, Medghacen, lmedghassen : la variabilité des noms ou des graphies est à elle seule tout un programme, illustrant les positions adoptées à l'égard du patrimoine et de ses lieux. On laissera bien sûr aux historiens la part qui leur revient, sans pour autant nier que chaque génération doit réinventer sa vision des lieux de mémoire. C'est même une nécessité, ne serait-ce que pour éviter l'écueil de l'indifférence. Rêvons donc le Medracen, plutôt que de l'ignorer.*

Dans ce petit texte, le Medracen peut apparaître comme un élément de décor, mais il est bien plus. Trois amis, deux Algériens et un Français, discutent sous son égide de ce qui les préoccupe, au (futur) lendemain d'un mouvement populaire sur lequel ils ont des avis divergents. Mais la seule présence du monument à leurs côtés donne une tournure particulière à leurs échanges. Car ils n'ont pas le choix : s'ils veulent trouver un sens à leur situation, ils doivent envisager celle-ci au regard de l'histoire, et de l'histoire la plus élargie : celle qui plonge dans le temps, et reste à bien des égards indéterminée. Cette indétermination est importante, car elle oblige à l'humilité. Rien n'est très sûr, aucune

des traces écrites. K. chercha la pédale de frein. Il n'y avait plus de « 11 légère ». Il poussa un cri d'effroi. Est-ce son cri? Le mugissement des vaches? L'abolement des chiens? Le fracas de tôles de ses vieilles Tractions? Une mer de sueurs froides inonda son lit. C'étaient les coups de klaxon du bus scolaire qui venait chercher sa fille Kenza pour l'excursion au tombeau du Medracen prévue pour ce jour-là. La veille, K. avait pourtant reçu un courrier express dûment cacheté de l'académie de la ville l'invitant à accompagner le groupe scolaire. Le chauffeur du bus s'impatiait...

Bibliographie

- Ibn Khaldun, *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*. Traduction de William Mac-Guckin De Slan. Édition intégrale, Éditions Berti, Alger, 2003.
- Ismaïl Kadaré, *Les tambours de la pluie*, Fayard, 1985.
- Nabile Farès, *La découverte du Nouveau Monde. Mémoire de l'Absent*, Livre II, Éditions Seuil, 1974.

La Kahéna

Celle que l'on accuse d'avoir brûlé la terre

Jeune Femme qui ouvre le mari

Exile les fils

Egorge le bédouin

Ou

Assassine l'amant (...)

La Kahéna est visible. Dans sa tunique de laine rouge (...) L'assistance interroge Kahéna devant le Récitant: « Femme, pourquoi avoir déserté l'olivier, pour la peau dure du bédouin ».

« Femme l'amour du grand Kocēila ne peut survivre à la morsure de l'Étranger. »

« Femme, pourquoi éteindre le feu de l'unité? Ou, le Bédouin, a-t-il plus de vertu amoureuse que l'Olivier? Tu n'es plus digne d'être parmi les gens de l'assistance... Les hommes tourneront, alors qu'ils étaient venus vers toi Kahéna, pour accomplir l'unité, et non pour voir, Kahéna, l'amour d'une femme et d'un Bédouin². »

Faïn n'était plus Faïn en robe blanche. Une Faïn qui ignorait qu'elle s'appelait ainsi et qui se demandait ce qu'elle faisait dans cette voiture. D'un tissu rêche noir, K. ne voyait de cette mégère qu'une énorme bouche édentée qui avalait des paquets de papiers dont apparemment elle savourait l'encre

2. Nabile Farès, *La découverte du Nouveau Monde. Mémoire de l'Absent. Livre II*, Éditions Seuil, 1974, Ch. VII, PP. 135-147.

aux ancêtres inventés. Nabile Farès tord le cou à cette fausseté gémellaire et va fouiller, dans l'outre de peau de chèvre noire, l'histoire la plus lointaine de l'Algérie pour construire une esthétique de la « désorigine » des mythes idéologiques, les substituer par des origines enfouies, vraies, dynamiques et fécondes de l'oralité des contes berbères et bien au-delà, de la parole iconoclaste des bardes, des Récitants, convoquant l'oralité vive, la résistance de la Kahina, dans une sorte de circularité du temps historique et du temps subjectif.

« On raconte que les Tribus du Hidjaz furent arrêtées par la guerre de Kahéna. » Tel est le vrai dit le Récitant.

« O assistance

Avez-vous

Vu

La terre

Sauvage celle que

Je brûlais

D'Oliviers

En Oliviers

De Cèdres

En Cèdres

De Figuiers

En Figuiers ».

Sa voix monte; tandis que le récitant baisse les yeux vers la terre.

Chronique littéraire de Baten 3

Nabile Farès a construit une œuvre dense, ésotérique. Il a écrit peu de romans mais son œuvre est complexe par ses interrogations, ses doutes, comme si elle était « autistique », dans l'incapacité de dire une histoire pour laquelle il n'y a pas de mots. De prime abord, la question primordiale de la falsification de l'Histoire du Maghreb en est le fil conducteur. Si le roman Yahia, pas de chance dit à travers un jeune algérien kabyle, étudiant à Paris, l'engagement pour la guerre de libération anticolonialiste avec un double déchirement (l'exil forcé et la filiation perturbée), la trilogie farésienne, elle, La découverte du Nouveau Monde amorce une désillusion, une sorte de perte d'euphorie d'un idéal de liberté dès les premières années de l'indépendance. Adenouar de La Mémoire de l'Absent – plus que Yahia qui est dans l'action, la découverte et l'initiation à l'amour d'une femme et du pays – s'interroge, s'enfonce dans un puits d'interrogations sans fond. Les déchirures de la guerre s'ajoutent à celles d'une indépendance confisquée. Il est déchiré entre les deux berges du fleuve faulknérien. Être le forçat indigène dans un pays occupé et le forçat dans son pays sitôt libéré, falsifié. Où trouver le Nouveau Monde ? Il faut être à la marge du fleuve, en changer le lit corrompu de trop de méandres artificiels. Alors, l'écriture entame une reconstruction d'elle-même, dans le refus cinglant et véhément d'« écrire par intérim » pour se libérer des masques, des mots corrompus, des filiations de la fausseté, de l'Histoire triturée,

déses-pérant de ne pouvoir réveiller le roi numide Massinissa et le Conquérant berbère de l'Andalousie chrétienne Tarik Ibn Ziyad, qui m'avaient tous deux pourtant promis, la veille du départ du rallye, de me raconter, le premier, non pas, ai-je insisté, ses deux guerres puniques à la gloire de Rome, mais sa conquête amoureuse hors norme, shakespearienne, de l'éternelle Sophonisbe. Le second, Tarik, je ne me serais pas gênée de lui demander: « qu'est-ce qui t'a pris de faire des Berbères pacifiques que nous sommes, des colonisateurs à la solde des arabes musulmans, un petit chef donquichottesque entre les mains de Moussa Ibn Noussayr qui a ri de tes victoires sur l'Andalousie et craché sur tes offrandes destinées au Commandeur des Croyants? Tu me dois une explication! Cette fumée noire? Semble m'interroger de ses yeux soudainement rembrunis Hé Receveur qui m'adressa enfin la parole d'une voix craintive, me disant: "Yemma Kahina, toi aussi, nous ont dit les organisateurs officiels du rallye, tu nous dois des explications autant que Massinissa, Tarik Ibn Ziyad. Pourquoi as-tu préféré l'amour de Khaled, le Bédouin, fils de Bédouin, aux Oliviers millénaires de l'Awres? Pourquoi as-tu brûlé, saccagé tout le pays de tes propres mains?"... » Le chroniqueur Baten resta coi devant l'outrecuidance de Hé Receveur de l'Oiseau Blanc qui continuait sa route dans la nuit épineuse de K...

et en os ! Pourquoi aller honorer sa statue ! Quel étrange rallye ! Est-ce à moi seule de ranimer les ailes de fer vieillissantes de votre Oiseau Blanc ? Hé Chauffeur, dis-moi, l'ai-je questionné au moment où le gros des troupes de Novembre 54 des sièges arrière du sympathique rafiot étaient en conciliabule avec Si Sban le grand armurier de Oued Taga, l'escorte de Belkacem Grine, à propos de l'inhumation décriée de cette dizaine de crânes de chouhadas arrachés de la « main étrangère d'une France néo-colonialiste », suis-je donc, moi, Dihiya-Kahina, reine de l'Ifriqiya et du Maghreb, la farouche résistante aux armées du Hidjaz, ne seriez-vous pas au fond gênés par mon combat, l'identité de mes ennemis, la mienne aussi ? C'est à peine, les ai-je houspillés de mon Siège – Trône n° 1 dans lequel ma tête commençait maintenant à avoir le tournis, si vous m'écoutez et d'ailleurs, vous n'avez pas dit un traître mot, rien ! Je ne me suis pas gênée de signifier à Hé Chauffeur, le chroniqueur de ton Oiseau Blanc est pour le moins intrigant avec ses silences, ses regards de biais, ses traits de crayons crissant sur son bloc-notes et puis, ton car, ce car, sorti de notre préhistoire, l'ai-je cette fois houspillé, qui ne cesse de crachoter cette épaisse fumée noire comme celle par laquelle a fini mon règne ! Oui, me suis-je presque lamentée à Hé Receveur qui a maintenant quitté le groupe des maquisards en conclave autour de Belkacem Grine, son escorte Si Sban l'armurier, l'Almohade Ibn Toumert,

une embarquée sur la gauche pour éviter un obstacle dressé au milieu de la route, des monceaux de dossiers, de chemises, de sous-chemises, numérotés, des boîtes de cartons étiquetées se détachait son courrier administratif qu'il avait reçu des autorités préfectorales lui enjoignant de préparer, à titre de fermier voisin du Medracen depuis une trentaine d'années, une cérémonie officielle d'inhumation des crânes de valeureux combattants de la guerre de 54, enfin repris des mains étrangères, pour être inhumés dans le mausolée des rois numides pour marquer aussi, en apothéose, dans l'histoire ancienne et contemporaine, l'entrée de Tamazight des ancêtres dans la constitution de la République algérienne et démocratique ! Ces mots-là se détachaient à mesure que les feuilles s'arrachaient par milliers des dossiers, des chemises, sous-chemises, bleues, rouges, jaunes, voletant dans le ciel, aveuglant les yeux d'albâtre de Kahina, entourant, cerclant sa robe de laine rouge, s'amoncelant à hauteur de ses pieds nus, se collant à ses chevilles, recouvrant son visage comme si toute l'Administration émettrice de ces tonnes d'imprimés encerclait la Reine, l'étouffait, en détruisait par ses papiers, sa pierre.

Kahina dit, enfin, à K.

Massinissa et Tarik Ibn Ziyad ne se réveillent toujours pas, Hé Receveur, ne peux-tu pas secouer ces marmottes médiévales un peu plus rudement avant le terminus du rallye ? C'est où, déjà ? À Baghaï ? Mais Kahina est avec nous, en chair

crânes » des chouhadas en le signifiant au chroniqueur du rallye...

Faïn et K. avaient célébré leur mariage à bord de la Traction « 11 légère » alors rutilante, rugissante, cet été-là. C'était avant T'fouda ou presque, sillonnant les vastes étendues des hauts plateaux constantinois; lui en costume blanc, elle en robe blanche, le ciel tacheté de blanc et les troupeaux de moutons aux laines blanches mouchetées au henné rouges à l'extrémité de leurs queues. La belle 11 légère qui gît maintenant là, amas de ferraille, s'était vêtue du bleu du grand large, le long des côtes algéroises, jusqu'au Tombeau de la Chrétienne où K. s'était rappelé qu'au retour, ils visiteraient la statue de Kahina érigée à Baghaï, dans la région de Khenchela. Puis, sa belle « 11 légère » ne pouvait terminer en apothéose son périple de lune de miel sans, pour bénir ses passagers unis pour la vie et pour la mort, mettre délicatement ses roues sur les terres sacrées du Medracen. Madghis en serait effarouché! Mais K. était saisi d'effroi. Son rêve se muait-il en cauchemar? Faïn avait enlevé son voile, ses ballerines, ses collants, retroussé les pans larges et ronflants de sa robe encombrante, recouvrant le tableau de bord, gênant les manœuvres de conduite de K. La voiture tanguait de temps à autre mais elle reprenait son allure de vieille dame exquise. K. sifflotait et la belle Kahina de pierre se dressait au milieu des terres pleines de ses pierres d'empires d'antan. Les roues crissèrent, la « 11 légère » fit

Oqba le savait. Comment allait-il islamiser par le sabre et l'épée l'Ifriqiya, impuissant qu'il est face à ses roches, ses arbres, ses animaux, ses dieux, ses ancêtres, ses esprits, ses pyramides, son Tombeau de la Chrétienne, ses Arches romains, son Mausolée et ses dolmens hellénistes et ses peuples barbares commandés par une femme qui humilia son successeur, Hassan, revenu avec tambours et trompettes, renforts et argents, décidés à raser l'Ifriqiya, quitte à se faire harakiri (en déguisant cela comme sacrifice suprême au djihad) plutôt que subir derechef l'opprobre « de cette mécréante de juive », lui avait dit son Commandeur des Croyants, pour lequel le mot femme était synonyme de harem, de jouissance de chair, de soumission et d'esclave... Alors, Hé Chauffeur, m'entends-tu? Les Arabes musulmans à défaut de pouvoir détruire nos monuments en notre temps, s'en prennent à nos ruines de votre vivant? Détruire les ruines de Pétra, de Tombouctou!

Ah, le voici, enfin, me suis-je exclamé à la suite de Hé Receveur qui a ouvert la porte avant de l'Oiseau Blanc empoignant le bras du marcheur-prêcheur officiel du rallye, Ibn Toumert qui, au lieu de reprendre son siège n° 7 alla se mêler à la vive discussion des troupes guerrières des anciens maquis de 54 qui commençaient à s'agiter autour de Belkacem Grine qui ne voulait pas entendre parler de l'inhumation officielle de « prétendus

avec les animaux rupestres, se dirigea, armé de silex et, pour beaucoup de poignards de bronze, vers les portes de pierres centrales du mausolée pour y monter la garde. Les lionnes aux jolies crinières rousses incomparables de beauté sauvage, les panthères aux robes qu'on aurait dites scintillantes de pierres précieuses, les éléphants de notre reine Ifri aux trompes noires d'ébène et, de toutes les profondes forêts de cèdres indéracinables de notre pays chawi, assaillirent les caravanes musulmanes déjà embourbées, absorbées, avalées par les lourdes mottes de terre grasses qui ouvraient leurs bouches de limon, puis se refermaient dans de gigantesques succions, lapements, sur les guerriers avalés crus, vivants. Parfois, ne sortaient de terre que les tiges de fer de leurs épées embourbées. Les Aït Lakhert pour lesquels la plaine ouvrait un chemin solaire vers leurs dolmens millénaires allèrent se prosterner devant la sépulture de Madghis qu'ils trouvèrent siégeant avec les rois de l'Ifriqiya les prévenant d'un désastre de Babylone... Hé Receveur, ce n'est là malheureusement qu'une légende, la réalité, c'est que Oqba a traversé la plaine avec ses tentes, ses hommes, ses prisonnières et sa rage d'exterminer mon peuple. Dans la mêlée, à la vue du Mausolée, un immense tintement d'épées sorties des fourreaux contre les pierres démultiplia sa colère quand, aux coups répétés de ses hommes les plus vigoureux, les glaives mohammediennes allèrent se briser sur les bas-reliefs...

leur tombeau, puis, ils n'eurent pas plutôt posé le pied ferme sur la glèbe des ancêtres dont ils ont si longtemps été nourris de ses mottes que, comme ayant reniflé l'odeur génésique de leurs premiers architectes qui les ont figurés pour l'éternité, de leurs mains calleuses, au silex, puis au burin, sur le poli des pierres arrachées aux montagnes, équarries, lissées, ornementées, serties de leurs légendes, de leurs puissances, des bas-reliefs des ornements des pierres du cénotaphe, des lionnes secouèrent leurs rousses crinières et bondirent suivies de leurs lionceaux aux griffes savamment tatouées, des éléphants de la reine Ifri, la Berbère océanique, aux trompes énergiques taillées sur toute la largeur des pierres frontales de soutènement de l'édifice bramèrent, firent trembler la plaine en y jetant toute leur masse préhistorique restée vierge dans les esquisses des graveurs, des panthères aux crocs acérés surgirent des entailles d'autres bas-reliefs ornant d'autres pierres du socle de la sépulture et déchiquetèrent les troupes d'Oqba...

Hé Receveur, les légendes racontent que, de quelque côté que l'on se tourne, de tous les bas-reliefs de la sainte forteresse de nos rois numides qui y reposent et veillent sur nous, tous ces animaux qui font la beauté rupestre de l'édifice foncèrent sur les caravanes ennemies, retrouvant leur sveltesse après des millénaires de sommeil rocailleux, revigorées par l'odeur ancestrale du peuple des Aït Lakhert qui lui aussi, de concert

dans de grandes cages de bois en chariots tirés par des ânes, des jeunes femmes berbères faites prisonnières lors des batailles dites du « Jihad ». Madghis s'étonnait de l'organisation guerrière de cette armée. Ce n'étaient pas de puissantes et modernes colonnes comme il en vit chez les Romains, mais des tentes de différentes tailles (rectangle, ovale) et de diverses matières (cuir, laine) qui se déplaçaient à de grandes distances les unes des autres, remplies, plusieurs d'entre elles appartenant à une même tribu et portant à leur faite, attaché à un cordon, un signe distinctif du rang de chef guerrier de son occupant. La tactique des guerriers qui allaient hors des tentes était simple : foncer, attaquer par surprise et reculer aussi vite que possible. Madghis harnachant un cheval parmi d'autres laissés libres dans les vastes haras de la plaine n'allait tout de même pas laisser souiller cette vaste et riche plaine de Boumia sacrée du Temple des aïeux conçu aux goûts hellénistes des splendeurs du règne de Néfertiti. D'une brève caresse sur le flanc impétueux de sa monture agitée, il fit s'ouvrir les lourdes dalles des dolmens veillant aux alentours du monticule inviolable du Santon. Le ciel et les nuages, les étoiles endormies et les planètes de terre et de gaz, firent se lever, par cet appel du fils des fils de Madghis, des roches sacrées des dolmens, les Aït Lakhart de leurs sarcophages, époussetant leurs squelettes millénaires, replaçant, précautionneusement les dalles de schiste de

retrouve, Hé Receveur à mâchouiller ton infect casse-croûte chawarma! Pour une telle mission de cérémonie d'inhumation officielle de crânes des chouhadas, au moins des côtelettes d'agneaux! Ah, oui, je comprends, Massinissa et Tarik n'ont pas leur dentier? Je leur mâcherai par solidarité préhistorique les leurs. Mais il faut qu'ils se réveillent, Yemma Kahina, me sursurra Hé Chauffeur caressant son énorme volant. Bon, pour l'Histoire, scribe, as-tu noté? Hassan donc, militairement cette fois, ne pouvait digérer tant d'insurrections en terres d'Ifriqiya, douze au total, en un siècle, de Oqba à son règne, humilié, battu, ses puissantes armées défaites, mises en déroute et pourtant bénies de Dieu et du Prophète, protégées par le Saint Coran que n'ont cessé de réciter ses esclaves au plus fort des combats, le Livre d'une main, l'épée de l'autre. Bien avant la nomination de Hassan au poste de gouverneur de l'Ifriqiya, à son arrivée au Maghreb, Madghis, le gardien millénaire de l'habacle saint, la main en visière, debout en contrebas du dôme, sur l'une des pierres, chacune taillée dans l'entaille d'une autre, mémoire, architecture de filiations, vit les premières colonnes de tentes de cuir ou de laine des armées musulmanes du Hidjaz s'avancer péniblement dans un tohu-bohu général, chevaux et chameaux mêlés, troupeaux de vaches, de moutons, de chèvres volés tout au long de leur parcours terrestre, Égypte, Libye, Tunisie, Algérie, quelques femmes voilées de tissus noirs, d'autres, en groupes compacts, mises

de plus en plus dense. Des tambours roulaient de toutes parts, noyant presque de leur grondement les voix des cheiks qui haranguaient les soldats. Les derviches s'abattaient par terre, priaient, hurlaient sans cesse : — Nous enseignerons le saint Coran à ces rebelles maudits, criait un cheik. Sur leur terre bosselée comme le dos d'un démon, nous élèverons les minarets sanctifiés par Allah. Du haut de ces tours, au crépuscule, la voix de nos muezzins tombera sur leurs têtes mal dégrossies, tel un haschisch qui s'empare de l'esprit. Nous ferons en sorte que ces infidèles se prosternent cinq fois par jour en direction de La Mecque. Nous envelopperons leurs têtes malades et agitées dans l'apaisant turban de l'Islam... ». Mais, dans le tumulte et le grondement mystérieux de cette foultitude autoproclamée élue de Dieu, ces paroles n'étaient que cancans de beuveries. Le lendemain et les jours suivants, sous les remparts de notre citadelle, des tentes mal ficelées qui s'en étaient rapprochées, fusaient des litanies, des prières, des récitation du Coran enfiévrées dont nous connaissons quelques-unes si ressemblantes à la Torah...

Kahina dit

Je savais que Hassan allait revenir ! Qu'une armée arabe de propagation de l'islam, bénie par le Prophète Mohamed, revienne bredouille, défaite face aux « Kofr » de l'Ifriqiya, battue par cette « houdiya » de Dihya-Kahina, Reine et chef de guerre, légende vivante de son règne, cela, il ne pouvait l'admettre ! Et moi, je me

longues haies de futaies, on aurait dit, de nuit, qu'elle était couverte d'une neige, pas comme celle, drue et familière à notre odorat des saisons coutumières d'Amghar, Yennayer, que nous fêtions aux premiers jours de grands froids de chaque nouvelle année en l'honneur de Madghis. On aurait dit, en cet été torride de l'an 694, si ma mémoire est bonne, qu'une neige d'un blanc terne, celle d'un immense linceul venait couvrir nos terres, comme déjà mortes, griffées comme elles étaient par des milliers d'arêtes aiguës par la nature d'une pierraille calcaire striée, taillée par les morsures d'un soleil et d'un givre mordants. Du haut de nos remparts, tandis que Madghis et ses intrépides cavaliers harcelaient, mordaient sans relâche les arrières de Hassan, vendredi, après leurs grandes prières, ils s'abreuvaient de litres de raki et de vin de dattes pourries, on les voyait aller titubant de tente en tente, s'affaler de tout leur long dans les allées infestées de rats ; on les entendait s'esclaffer, jurant par Allah que, avant l'arrivée du Ramadhan chacun soldat d'Allah aurait une dizaine d'esclaves jeunes, berbères, réputées inviolables.

Chronique littéraire de Baten 2

Les plus saouls de ce breuvage des grandes prières, on aurait dit, étaient les précurseurs de cette armée ottomane assiégeant la citadelle albanaise au XV^e siècle dans le récit d'Ismaïl Kadaré Les Tambours de la pluie : « La multitude devenait

Zuheir B. Qays Al Bilwi qui arriva en Ifriqiya, harnachant son cheval, hennissant de furie à la nouvelle de la mort de Oqba. Kusila qui avait pourtant, pensait-il, le pauvre, prit l'étendard de l'Islam sur les frontons de son Royaume. Comme à votre époque, nous avons été invités, nous, les irréductibles montagnards d'Awras, à une « amnistie » ; nous savions que c'était un piège, un guet-apens. Alors, nous sommes demeurés inflexibles. Hassan dont j'ai défait les puissantes armées sur les rives bouillonnantes de laves et grouillantes de mes vipères rouge vif de la rivière Nini, étouffant de rage, préparait son retour en Ifriqiya, pour un long siège de ma citadelle, cette fois à la tête de renforts de troupes fraîches et avec beaucoup d'argent pour nourrir ses hommes, ses chevaux, ses tentes de cuir et de laine, ses troupeaux de chameaux faméliques, faire fondre sur place épées et fourreaux, assurer aux scribes de hauts rangs papiers et qalams pour laisser à la postérité la prise de ma forteresse de Baghaï et l'écroulement de mon Fief, restaurer ses châteaux de la province de Barca appelés « Qusur Hassan », abandonnés depuis sa défaite, et, surtout, Hé Receveur de cet Oiseau Blanc qui tressaute, branle, craque, toussote, et, surtout, tenir, il le savait, un long et éprouvant siège de ma forteresse taillée dans d'épais blocs de pierre du mont Awras inébranlable, imprenable, inviolable. Toutes les plaines des Djerawa, parsemées de tentes, de pavillons, de cordons, d'étendards, de

sante Reine, enfin, je doute qu'elle le soit autant que moi, Dihiya, Reine de toute l'Ifriqiya! Lla Fadhma N'Soumeur. Elle a combattu les Arabes musulmans, lui dis-je? Non? Non! Alors, les Grecs, les Francs? Non! Les Français!

Que n'ont pas glosé vos historiens officiels, Hé Receveur, m'entends-tu, qui gagnés par l'arabo-islamisme du ruissellement pétrolier, se sont évertués à fixer la date de naissance de l'Algérie au VII^e siècle, avec l'arrivée de Oqba Ibn Nafa, la grande épopée comme ils chantent, des « foutouhat islamiya » avec ses massacres de populations, destructions de villages, viols collectifs, et je n'ai rien à vous apprendre sur cette hécatombe puisque vous l'avez vécue et vous en portez les récents stigmates, non? Les armées arabes qui, après avoir mis en déroute les petites colonnes des Francs et des Roums sans pouvoir, s'adonnèrent, non pas à aux prêches, à la ferveur de leur mission de propagation islamique, de la Parole révélée que les troupes ne connaissaient sans doute pas, mais, ces vingt mille guerriers de Oqba le sanguinaire, s'adonnèrent à des razzias meurtrières, dans le tas, ne faisant aucune différence entre Berbères, Francs, Roums, à leurs yeux, impies, « Kofr ». Des chefs berbères croyant à la mansuétude des conquérants arabes embrassèrent l'islam des conquérants et payèrent de leur vie ce ralliement. Je vous ai raconté, Hé Chauffeur, comment Kuceila trouva la mort à Kairouan face aux armées de

que les armées arabes musulmanes bénies de Dieu car propageant de par le monde la religion du Prophète ont libéré notre peuple du joug des Francs (latins) et des Roums (Grecs)? C'est faux! Ils ne jouissaient d'aucune influence avant la ruée islamique. Hé Receveur s'occupait à l'arrière du car à préparer nos sandwichs chawarma froids, infects, des galettes d'orge délicieuses, des thermos de café, d'autres de thé à la menthe. En attendant que Massinissa l'amoureux inguérissable de Sophonisbe, le guerrier numide qui a prêté sa couronne à Rome durant ses deux guerres puniques, que Tarik Ibn Ziyad, le dernier berbère converti à l'Islam, le colonisateur de l'Andalousie Chrétienne qui a essuyé le camouflet de sa vie à son retour de la conquête auprès du pouvoir de Baghdad crachant sur ses présents, gage de son exploit avec sa flotte de Berbères dit-on islamisés et quelque deux cents Arabes peut-être beaucoup moins, même pas islamisés, des mercenaires, Hé Receveur, en attendant ton lunch, je me suis rapprochée de l'honorable compagnie des octogénaires occupant les sièges arrière du car, anciens baroudeurs de votre guerre de libération dont K. ou Baten ne m'ont pas beaucoup parlé, me disant juste qu'ils accompagnaient, délégation officielle, des crânes rapatriés, « des restes de notre guerre sainte » contre laquelle mon peuple s'est soulevé douze fois de suite! Le baroudeur des maquis du siège n° 17, Japoné, que j'ai pris en sympathie, m'a raconté l'épopée d'une puis-

Pourquoi tous ces cartons, tous ces dossiers sur ces crânes que vous classez? Mon histoire ne vous intéresse plus? Scribe, note de tes crayons finement taillés:

Durant les cinq années où mon brave Kuceila gouverna l'Ifriqiya, terres et mers, montagnes et plaines, nous, grandes tribus de mes deux aïeux Djerawa, Tidghas, tous deux fils d'Ulhas, nous nous enracinions alors au mont Awras, la terre natale de mes tribus de sang Urtedin, Terir, Urtlettut, Mekra, Ifwin, tous enfants de Dihiya dont j'ai pris le nom de la filiation pour gouverner mon Royaume et élever, à la gloire de Madghis Amghar, ma citadelle de Baghaï... Lors des premières invasions arabes de l'islamisation avec le ténébreux Moussa B. An-Nusayr, les temps étaient troubles. L'occupation arabe venait de s'accaparer des richesses, des privilèges dont jouissaient, avant elle, les Romains: les fortunes de l'impôt, les greniers à blé, les larges routes dallées qui leur facilitèrent les invasions, les architectures des aqueducs et ils continuèrent même à nous imposer le tribut de soumission sous prétexte de l'islamisation... N'allez pas croire à ces légendes selon lesquelles il suffisait de prononcer devant des soldats d'Allah brandissant l'épée la formule piaculaire « Allah ou Akbar » pour que, d'une chiquenaude, vous soyez libres et libérés enfin de toute inquisition! Hé Receveur, ne vous a-t-on pas enseigné à l'école et dans les manuels de la « ouma islamiya »

Puis, des tornades encornèrent les murs oblongs de la pyramide envahie par ce maudit courrier qui s'est démultiplié, des milliers de feuilles, parchemins, papiers glacés, canson, fiches cartonnées, piquaient, insectes devenus, de leurs sceaux des autorités préfectorales, sur les sarcophages qu'ils obstruaient de leur amas fétide, et, des colonnes de dossiers et de sous-dossiers empilés s'écroulaient sur les rois numides aux corps fragilisés par des siècles de morts. Madghis, de son glaive, en déchiquetait tant et tant qu'il n'en finissait pas d'émietter cet étrange ennemi familial à K. Kahina s'amusait avec son Smartphone et jetait de temps à autre un regard enjoué à Ibn Toumert qui peinait à marcher avec son ancien bâton d'imam prêcheur dans les jets de fumée du vieux moteur du car L'Oiseau Blanc qui la propulse dans son siècle avec sa robe de laine rouge, ses bracelets de coquillages hérités d'Ifri, ses lionnes adoptées et nourries des viandes les plus tendres, des moutons des hautes plaines constantinoises. Madghis est en danger, elle le sent, le pressent. De cette paperasse, elle connaît l'origine, la fausseté de son message dupliqué et tamponné. Madghis ne subira pas l'affront!

Kahina dira plus tard à K.

Hé mon beau chroniqueur K., venez vous asseoir près de moi. Qu'avez-vous à vous planter tel un soldat de Hassan près du vaillant chauffeur, veilleur des crânes de chouchadas! Le siège n° 2 est vide. Hé Receveur, le permettez-vous?

en pénétrant sous la grande arche de l'Olympe berbère, la Voix de Kahina venue à son secours pour cette parade théâtrale d'un rallye barbare. Une occasion pour elle, maintenant vêtue d'une salopette en jean et branchée à un Smartphone 4G, de faire connaissance avec l'ancêtre almohade Ibn Tountout, le colonisateur berbère Tariq Ibn Ziyad à la solde des Arabes et rencontrer des combattants de l'ALN qui se revendiquent de sa résistance. Madghis, en l'honneur de K., réveilla d'anciens rois numides qui quittèrent leur sépulture avec dignité et aplomb, dans leur habit d'apparat, pour recevoir, se préparaient à recevoir certains, la resplendissante Néfertiti au sommet de son règne, d'autres, l'indomptable Kahina qui, à chacune de ses visites s'amusaient avec leurs lionceaux gravés sur les pierres schisteuses des sarcophages. K. frissonnait sous cet amas de roches plates, carrées, rectangulaires, si bien incrustées les unes dans les autres, lissées, arrondies sur les côtés, que, à les voir dans leur architecture imposante du dehors, si petites et fragiles pour K. dont le regard tel un reptile serpentait dans les anfractuosités des voûtes qu'elles formaient depuis des millénaires. Il se sentait devenir pierre. Des giclées de vent et de neige mêlés soufflaient, faisaient claquer par intermittence toutes les persiennes disjointes de la bâtisse et, au battement des loquets, s'ajoutaient les fracas de tôles des vieilles Tractions exilées là, éventrées, dans les tempêtes auréliennes de cette plaine dont les remuements sourds des profondeurs semblaient aspirer K. dans ses abysses.

la tête de K. à demi brûlées sur les tracés noirs de ce message officiel traumatique ; il tente en vain, se débattant, dans cette nuit hivernale, de se dépêtrer de ses marécages nauséabonds de paperasserie agressive, assiégeant d'imprimés sa nuit.

Il se revoyait dans la fraîcheur de ses vingt ans en ce printemps de 1980, aux premiers rangs de la révolte berbère des Aurès avec le peintre Cherif Merzouki qui a su dans ses toiles vives faire parler l'intimité des montagnes et des filles aurésiennes, leurs résistances légendaires, comme si c'était hier, défiant les ordonnances de l'arabo-islamisme avec les artistes du groupe pionnier de la cause amazighe, *Les Berbères* : Jamel Sabri dit Joe et Massinissa qui a tagué en lettres tfinagh les murs de son hameau de pierres, Oued El Ma, à Belezma, et dont la première chanson, *Yema Kahina* est devenue le symbole de cet engagement artistique. De Yema Kahina à Dihiya, K. avait fait de cette icône plus qu'un symbole, l'âme de son combat. Mais qui est cette Kahina qui agite sa nuit, lui parle dans ce car corbillard itinérant d'étranges crânes cérémonieux et de paquets d'imprimés tamponnés officialisant une langue berbère islamisée ? Cette nuit s'étalera-t-elle sur la plaine, voisine de sa bâtisse ? Alors, sans plus tarder, le collectionneur des Tractions remet sur roue sa « 11 légère » et prit, dans les ténèbres, la route vers le Mausolée. Le jeune Madghis l'attendait sur le portique du monument, prévenu de sa visite par les cendres de papiers dans un pays de pierres et de terres. K. crut entendre

dans une gargote du coin. Hé Receveur nettoyait le plancher du car, passait des coups de balai énergiques sous les sièges d'où il retirait des centaines de tickets de transport de l'époque où l'Oiseau Blanc assurait la ligne Azeffoun - Alger, aller sans retour dans la journée...

K. écachait dans sa nuit des milliers de lettres officielles qui lui parvenaient de la Préfecture de la ville par la porte, les fenêtres, s'engouffraient, poussées par les volutes de vent, par le moindre interstice du toit en tuiles rouges ; il n'avait pas plus tôt épandu des paquets ficelés dans la cheminée où à peine aussi devenues cendres qu'il en recevait des tonnes dans les jambes, dans les bras, sur l'oreiller, tant et tant qu'il en suffoquait. Mais il parvint tout de même à se libérer de tout cet assaut de paperasserie qui l'assaillait. Il libéra une cohorte de rats enfermés dans le débarras qui, affamés, en firent leur festin. À pleines brassées, K. s'emparait des dossiers les plus ventrus, aux chemises cartonnées boursoufflées, rongées par de larges plaques jaunâtres de moisissures, foyers de tant d'années de pensées uniques, les projetait aux flammes qui, comme rassasiées, n'étaient plus que fumées opaques carbonisant des paquets d'ordonnances officielles, de notes internes du Parti, de comptes rendus de séances de la Mouhafadha, d'affiches commémoratives du 1^{er} Novembre et du 5 juillet, de manifestes de campagne aux élections, des formulaires vierges, de papiers préfectoraux dans

est sorti, indemne du grand virage, Hé Kahina, pardon, Ô Yemma Kahina, les armées de Oqba, de Hassan et d' Abdelmalik sont, de notre temps, bénies ; grâce à eux, disent les papiers officiels, l'Algérie est née de leur « foutouhat islamiya » m'avait-il lancé de la cabine de pilotage de son vieil Oiseau Blanc pétaradant ; les Berbères Butr et Madghis ont embrassé la lumière de l'islam qui les a délivrés des ténèbres du paganisme. Non ? Mais, moi, Dieu m'en préserve, m'avait-il ajouté, en lorgnant d'un air soupçonneux le scribe, ma mission est de participer à ce rallye historique, avec ce sac de crânes sacrés que j'ai là, sous mon tableau de bord et ces dossiers officiels des autorités organisatrices du rallye national ! Hé Chauffeur, l'ai-je presque supplié, fourbu qu'était mon crâne, ma tête et tout ce qu'il y avait dedans, par ce tohu-bohu de ferraille, ces freinages impromptus, ces odeurs de mazout, ces coups de volant secs qui semblaient lui donner du tonus, on aurait dit rescapé d'un âge antique, du nôtre, tout fier, nous avait-il déclamé, d'être de nouveau à bord de son cher Oiseau Blanc, aux couleurs du Rallye barbare jaune vert avec le slogan quadrilingue – arabe, tamazight latin, tamazight tfinagh, français « Gloire aux crânes de nos chouhadas ! Gloire aux crânes de nos ancêtres ! »... L'ai-je supplié donc, Hé mon bon Chauffeur, ne pourrions-nous pas observer une halte, marcher avec Ibn Toumert, réveiller Massinissa, Tarik Ibn Ziyad... et nous restaurer

Nini aux pieds de ma forteresse de Baghaia si ressemblante à cette belle citadelle albanaise de la chronique de Baten, m'as-tu dit. Est-ce ce chroniqueur qui nous accompagne, debout près de toi? C'est un garçon charmant! Et je vois, d'après cette chronique, c'est, j'en suis sûr, un érudit! Quoique j'eusse voulu l'entendre de sa propre voix. Il est, m'as-tu dit, fort occupé, là, debout, près de Hé Chauffeur, à consigner sur son bloc-notes le moindre incident de ce rallye. Hé Chauffeur, m'étonnai-je, je ne vois plus Ibn Toumert marcher le long du car, à droite, sur le bas-côté », et lui de me rassurer qu'il est bien accroché à cette course de tortue, de ses semelles imamales amazighes almohandiennes, lui aussi, avant le pacha ottoman, parti à la conquête de la citadelle des princes almoravides fourbes et corrompus assiégés la perle des villes, Marrakech, qui résista jusqu'à la mort de l'imam chleuh avant de s'écrouler sous les assauts de son fougueux lieutenant Abdelmounen.

Haletant, crissant sa ferraille à un virage empierré, mon Oiseau Blanc achevait presque la conquête ardue à coups de volant brefs, énergiques, donnés comme ces coups de boulets ottomans contre la glorieuse citadelle albanaise, de cette côte qui, sous les roues de la bête de fer et les semelles almohades, semblait imprenable. Les cahotements ne réveillèrent pourtant pas Massinissa et Tarik Ibn Ziyad. Hé Kahina, m'avait interpellée le chauffeur, après que l'Oiseau Blanc

un commerce lucratif. Alors, les muftis du pacha Tursun, comme au VII^e siècle du trépidant Oqba Ibn Nafi en Ifriqiya qui jura, écumant de rage, de voiler de noir, ces femmes impudiques aux regards de feu, menant les hommes aux combats, huit siècles plus tard, ces muftis des armées ottomans agglutinées autour des remparts ensanglantés, qu'on aurait dits de l'antique Troie, de cette farouche forteresse albanaise, discouraient de leurs voix tonnantes et juraient : « Nous dépouillerons leurs femmes et leurs jeunes filles de leurs vêtements blancs et impudiques pour les revêtir de la noble mante noire, bénie par la religion. Nous couvrirons d'un voile leurs visages et leurs yeux pleins de malice qui regardent licencieusement les hommes et s'offrent tout aussi librement à leurs regards. Nous ferons en sorte qu'elles oublient les brûlants transports de l'amour pour se marier selon les saintes lois du Shérihat. Nous leur ferons courber leurs têtes indociles sous l'autorité maritale, comme le prescrit le saint Coran. Ainsi, les détournant de leurs coutumes barbares et leur inculquant généreusement nos magnifiques principes et coutumes, nous en ferons des femmes honnêtes et vertueuses et sauverons leurs âmes possédées du démon. Nous verserons notre sang pour que la lumière de l'Islam pénètre jusque dans ces repaires de loups... ».

Kahina avait dit à son tour

« Hé Receveur ! J'ai défait les armées de Hassan sur les rives de cette rivière magique

Royaume, les armées de Hassan ne furent plus que champ de ruines humaines. Hé Chauffeur, je le lui ai dit, tout cela n'est pas vrai, c'est une légende, mon peuple se nourrit de légendes ; c'est grâce à celles-ci qu'il a survécu, que ce car porte bien son nom, L'Oiseau Blanc.

Chronique littéraire de Baten 1

Dans son roman Les tambours de la pluie¹, Ismaïl Kadaré raconte le siège, au XV^e siècle, de l'imprenable citadelle albanaise, par les puissantes armées ottomanes criant « Allah » et « Padicha » (le commandant en chef des soldats de l'Islam) aux pieds des remparts ensanglantés que les canons aux puissances de tirs démultipliées, coulés sur place, n'arrivent pourtant pas à détruire. Sur la place, de tentes en tentes, des « sheh », muftis, poètes de service, enflammaient les soldats d'Allah, de leurs harangues enfiévrées à la veille de la terrible et décisive offensive contre la maudite et mécréante citadelle dont on ne sait quelles mains du Diable l'ont pourvue d'une telle puissance secrète de murailles inébranlables. Ils ne maudissaient pas la citadelle qui narguait du haut de ses remparts la plus grande puissance de l'Islam de tous les temps, mais vouaient aux gémonies, les femmes, les belles jeunes filles qui, depuis leurs conquêtes du pays insoumis, préféraient se jeter des hauts des précipices que d'être prises vivantes par les soldats ottomans ou tatares qui en faisaient

1. Ismaïl Kadaré, *Les Tambours de la pluie*, Éditions Fayard, 1985.

Iblis, agitées entre les mains des Enfers abyssales, lampant de leurs langues incandescentes, pattes, museaux, poitrails des chevaux, les engloutissant avec leurs cavaliers dans l'immensité infernale des flammes liquéfiées et les glaives et les « Allah ou Akbar » poussés, neufs, rugis des gorges bestiales, allaient se fracasser, s'émietter contre les murets de pierres rouges dégoulinant de sang, de lambeaux de chair, de viscères encore tremblotantes, avant d'être cramoisies, des conquérants hidjazis ainsi lampés, lapés, par les torrents de boue de la Géhenne Nini. Les belles tresses de mes farouches guerrières aux robes chamarrées que les cavaliers arabes rêvaient d'« entretenir » dans leur harem, se transmuèrent en redoutables vipères rouge vif, celles élevées au giron des pierres nues d'Awràs, qui fondent sur leurs victimes aussi fugitives que l'éclair d'une caresse donnant ainsi l'illusion d'un bien-être véloce. Et, dans les chèches, autour des cous veineux des soldats d'Allah et de Hassan défaits, dans les fourreaux, les gandouras, mes vipères de pierres invitaient aux morsures des amours aux venins mortels, et les épées et les sabres et les incantations et les invocations en un dieu unique et miséricordieux. Ils eurent beau invoquer, pointer l'index de la main droite ou les deux paumes ouvertes vers le ciel comme en une ultime prière, ou psalmodier, crier, appeler la mère lointaine, entre la furie de la rivière en feu et les tresses érotiques des vipères aux seins de pierres nues, effigies de mon

buste raide, raidi, retrouvant la sveltesse de son XII^e siècle, avançant sur le bas-côté du chemin escarpé, psalmodiant déjà, d'une voix conquérante des versets du saint Coran traduits par lui en Tamazight ancien et il semblait bien, à Hé Chauffeur qu'il n'avait plus besoin d'enfoncer la pédale d'accélérateur sur le plancher pour que son Oiseau Blanc prît, on aurait dit, quelque frémissement d'ailes au ras de la crête. De dévots, d'oulémas, de pieux, d'exégètes, Hassan ne pouvait se prévaloir d'en avoir dans les rangs de ses armées de mercenaires, d'aventuriers, attirés par la solde et alléchés par les butins de toute nature. Ils n'avaient, pour sanctifier au nom d'Allah des actes de guerre barbares, que les cris gutturaux comme vous les avez entendus dans leur frayeur aujourd'hui, « Allah ou Akbar » dégainant, d'un seul tenant, le sabre effilé ou courbé de son fourreau et la haine animale de ses avatars contre des populations accusées de « Kofr », des enfants, des femmes, des vieillards, des hommes aussi, éventrés, étêtés, violés, crucifiés pour leurs religions, leurs dieux de pierre, de bois, de brouillard, de pluie, de totems, d'arbres, de fleurs, de fleuves, d'esprits, et que sais-je encore ! Le car émit un gros pet de jet de mazout !

La rivière Nini, asséchée, de ses galets craquelés par les crocs d'un soleil de barbarie, fit jaillir de ses tréfonds de la géhenne, des torrents de laves bouillonnantes, celles endormies, depuis le péché d'Adam et Ève, éjectées, éructées, endiablées par

fruitiers, les silos remplis de grains, au retour de Hassan avec ses renforts d'armées arabes musulmanes, faisant du pays un *no man's land* plutôt que de le voir, si riche, si fécond entre les mains des envahisseurs. Que d'insanités ai-je entendu depuis que ma tête et ce qu'il y a encore dedans est revenue parmi vous pour fêter le retour de vos crânes !

Ibn Toumert, réveillé, demanda à Hé Receveur à marcher pensant aller plus vite que le car qui toussotait, ce qui lui permettrait de réciter, au grand air, quelques sourates en tamazight, à gorge déployée, et aiderait le moteur à s'aérer ! Hé Chauffeur, à mon grand étonnement, attendait les lèvres ouvertes la suite de mon combat contre les armées de Hassan sur les rives empierrées de la rivière Nini. Hé, oui Chauffeur, avec ce raffut de ton moteur rockeur, à l'heure des technologies sophistiquées, ça m'est bien pénible de te raconter mes grandes batailles contre les armées du Hidjaz ! Ne faudrait-il pas attendre que ce rafiote ait gravi cette pente ! Et Hé Receveur, gentil comme tout, consciencieux, d'ouvrir la porte avant anciennement pneumatique, tenant la main à Ibn Toumert qui, souriant, arrangeant son chèche noir, époussetant de son éternel bâton avec lequel il fonda la dynastie almohade, sa gandoura de laine remplie de miettes de galette d'orge tartinée de confiture d'abricot, le livre saint à la main droite, descendit du car roulant à peine et se mit à marcher d'un pas ferme, le

Kahina raconter, comme dans un songe, au jeune scribe, K. ou Baten, debout, près du navigant sommeillant de l'Oiseau Blanc : « Consigne cela, à la lettre, ce ne sont pas les Arabes et surtout pas Hassan qui m'ont affublée de ce prénom dit arabe « Kahina » qui signifierait la devineresse, une sorte de Tawkilt, femme invisible, qui lit l'avenir. C'est vrai, lorsque bien des siècles après notre Néfertiti et Ifri, reine des côtes de l'Ifriqiya, aux immenses troupeaux d'éléphants terrestres et marins chut dans la nuit des temps et des eaux, je pris la succession et je m'appelais Dihiya, dès l'annonce de l'invasion des armées arabes de l'Ifriqiya sous le prétexte de l'islamisme, de cette fameuse et fumeuse « foutouhat islamiya », alors qu'il s'agissait de la dévastation de l'Ifriqiya, la terre ancestrale des Butr et Madghis, j'ai pris, moi-même, le nom de guerre « Kahina » pour tromper l'ennemi. Une reine berbère avec un prénom arabe ? Et alors ?

De mon temps, les langues circulaient, se croisaient, s'entrecroisaient, comme les religions, la soie, le sel, le café, les esclaves. On me dit juive, sans foi ni loi ; on a fantasmé sur mon jeune amant Khaled du camp ennemi, K. comme vous, un soldat de Dieu, comme vous les désignez aujourd'hui ; mes frères m'ont même déférée devant un tribunal littéraire pour avoir trahi mon sang, me sommant d'expliquer mon geste destructeur, celui d'avoir incendié toutes les récoltes de mon Royaume, les vergers, les arbres

Mon peuple, m'a-t-on appris est divisé sur cette question –, c'était la présence énigmatique de ce jeune homme, debout près du chauffeur, un bloc-notes à la main, gribouillant, ne cessant de tailler ses crayons, c'est certainement, me suis-je dit, le scribe du Rallye, comme j'en eus, dès mon intronisation, plusieurs dans mon agora, de fins lettrés, qui, dont les pères des pères, riches caravaniers sur les grandes routes commerciales de la soie, du sel et des pierres précieuses, ont appris les langues écrites savantes des peuples étrangers, surtout des richissimes chameliers arabes de Médine et de La Mecque, versés dans les muaa-laqat des passions amoureuses de qays et Leyla. J'aurais aimé être une de ces Leyla versifiées dans cette langue poétique, savoureuse, exquise, enchanteresse. Passons! C'est Baten? Le chroniqueur officiel? Non, m'avait dit Hé Chauffeur, confirme Hé Receveur. C'est K. Il a un problème avec ses blocs-notes. Depuis que nous avons pris la route, il ne cesse de froisser des papiers! Ne l'aviez-vous pas vu, Ô Reine de la Berbérie, avec un balai et un bidon de peinture blanche, au matin de notre départ, effacer, gratter les slogans officiels sur les ailes de mon Oiseau Blanc?

Hé Receveur qui nettoyait le plancher souillé par le vomi à hauteur du Tapis n° 7 de l'imam Ibn Toumert qui ne supportait pas les soubresauts du car ni les relents âcres de l'épaisse fumée que dégageait son vieux moteur arrière toussoyant, gémissant sur un raidillon crut entendre

dit au Receveur, celui des chariots de pierres et de bois de Madghis m'avait raconté mon père, nous n'avions pas ce problème! Ah, quelle époque vous vivez, mon brave Chauffeur, pensais-je en regardant le paysage morne! J'aurais bien voulu tenir conversation avec lui mais il était tant affairé avec Massinissa Siège n° 4, Tarik Ibn Zyad, Banquette n° 5, Ibn Toumert Tapis n° 7 qui, assommés par le voyage, ronflaient, se grattaient et menaçaient, à chaque coup de volant brusque sur cette route serpentée et caillouteuse, de perdre sa distinction d'apparat, Massinissa sa gerbe d'olivier, Tarik sa couronne andalouse, Ibn Toumert son Coran amazigh et moi, Trône n° 1, rien. Rien? Pensez-vous, La Pierre Gemme de Madghis! L'Unique, elle m'a été transmise par des générations des Butr et des Madghis. Je l'ai toujours, pendentif à mon cou! Le chauffeur du bus, comme s'il avait lu dans mes pensées, se retourna vers moi, laissant ses mains velues accrochées à l'immense roue que l'on appelle volant et semblait me dire: « Hé Kahina, mon car, L'Oiseau Blanc, est sorti lui aussi de la préhistoire, tout le pays, vois-tu est revenu à la préhistoire avec ce Rallye barbare! Rallye berbère ou barbare? L'ai-je questionné? Il se tut. Ce qui m'intriguait depuis que le lancement officiel de la course des vieux tacots pour la cause des crânes rapatriés et de l'officialisation de ma langue prise en otage par un article de Hassan – ai-je encore la force de conduire une autre résistance en Ifriqiya, si tant l'Ifriqiya existe encore?

femmes, belles, aux chevelures des aïeules d'Ifri ou de Néfertiti ou même des cavalières Tartares des plaines berbères ouzbèks, tresses de corail teintes au henné, nouées aux fronts tatoués de signes mystérieux, courant leur relief taillé au fusain jusqu'à leurs gorges de gemme. Je n'ai pas attendu que ses caravanes lourdes de ses tentes dont les dernières des colonnes traînaient à Sousse, missent leurs étendards sur les contre-forts de mon inviolable ecclésie. J'ai adopté la technique des aïeux, celle de Madghis II contre les Grecs à T'fouda. J'ai, le long de la rivière Nini que devaient forcément traverser Hassan et ses armées d'Allah aveuglées par la fournaise d'un ciel de pierre, élevé des murets de cailloux aux arêtes aussi tranchantes que leurs épées musulmanes. Hé, Receveur, ne pourrions-nous pas observer une halte, il y a trop de secousses dans ce car déglingué. J'aurai bien voulu être dans la belle Traction d'honneur avec Medracen. Où est K. ce collecteur de « 11 légère » qui, m'avait-on dit, devait être l'organisateur de ce rallye barbare, oui barbare, car, je vais me plaindre auprès de lui. Je suis la seule femme de cette délégation, Dihiya Reine berbère de l'Ifriqiya, Kahina, chef de guerre, résistante aux invasions arabo-islamiques de l'Ifriqiya au VII^e siècle, à voyager dans un transport collectif, comment vous appelez déjà ce car ? L'Oiseau Blanc, avait dit le Chauffeur.

Où en étais-je déjà ? Ça y est, la panne est réparée ? La roue de secours ? De mon temps, ai-je

manes jamais constituées depuis l'ogre à l'épée insatiable de sang, Oqba.

Hassan Ben Nuâman redoutait une défaite, d'autant plus qu'il serait mis à terre, à genoux par une femme, lui, le général velu d'une armée musulmane dont les rangs majoritairement mâles, aux barbes noires, rousses, pouilleuses, crépues, portées calamistrées, par les imams officiers, ne comptent de femmes, que de jeunes prisonnières effarouchées, pubères, encagées, arrachées à leurs familles au cours des expéditions saintes, cantinières, laveuses, repos des guerriers et peu leur importait de les convertir à leur religion.

Écoute, hé Chauffeur, après avoir reçu de ses émissaires éclaireurs des informations stratégiques sur ma belle forteresse de pierre de Baghaï, confondue dans le paysage de roches rouge sang des monts acérés d'Awres, le bien nommé Hassan fit mouvement avec ses armées hennissantes, criant, aboyant des « Allah Akbar » qui, n'avaient pas plus tôt fusé des bouches écumeuses et des lèvres mangées par des moustaches et des barbes hirsutes allaient se cogner, se briser, comme bois mort, contre les parois de ma citadelle, ses herses enflammées, grillées par les flèches incendiaires d'un soleil barbare. Madghis m'a enseigné la ruse et la rudesse, la science et la sagesse, l'art et l'esprit des résistances millénaires de mon peuple ! Le pauvre Hassan Ben Nuâman ! Je voulais lui infliger une cuisante défaite face à une armée composée uniquement de jeunes

jaunes ou rouge vif selon les endroits, ou encore, près des rivages océaniques, bleu émeraude. Je vous laisse donc mesurer la grande surprise de mon général musulman, Hassan Ben Nuâman nommé gouverneur de l'Ifriqiya, un Empire insoumis à la mort de Oqba, quand affalé dans son harem, ivre de vins de dattes, jurait par Allah, que cette Reine finirait là, parmi ses vestales ! Hé, chauffeur, ça sent le mazout, Moi, Reine, c'est dans ce tacot que vous m'accueillez en ce siècle sophistiqué ? Tous les Berbères, à la mort de Kuceila tué par les Messagers du Hedjaz dont il avait pourtant porté l'étendard, loin d'abdiquer, de se soumettre aux tranchants des épées affûtées au nom du Prophète, s'étaient ralliés, à moi, leur reine, Dihiya, l'ensorcelante ifriqiyenne à la robe de laine rouge.

Mais, dès que les Arabes de l'islamisme ont foulé du pied Ifriqiya, Madghis en suivit les colonnes dépareillées depuis Alexandrie détruite, mise à sac, ses populations réduites aux errances parmi les ruines amoncelées, j'ai pris mon nom de guerre Kahina, un petit nom dont aimait me gratifier Yemma, car tout ce que je lui confiais de secrets sur l'avenir des monts Awras qu'elle aimait tant et dont elle portait dans ses grands yeux l'éclat torride, se réalisait. Ainsi mes prédictions ajoutaient à mes légendes de reine guerrière qui allaient, note bien cela mon scribe, défaire l'une des plus grandes armées arabes musul-

troupiers rustres, premiers musulmans encore analphabètes, à peine sortis des déserts natals, nostalgiques des caravanes indolentes et des commerces saisonniers, que des Grecs déjà défaits, même encore puissants sur nos côtes. Les Arabes? Ce n'était pas la première fois que nous les rencontrions en terre d'Ifriqiya. Des peuples du Soudan, d'Alexandrie, des péninsules arabiques, du Royaume de notre antique Ifri, reine subliminale de l'Ifriqiya, jusqu'aux tartares aux yeux bridés, nous vivions dans ce que vous appelez aujourd'hui le paganisme. Les Yéménites qui n'avaient aucune religion à propager avaient régné un temps, un siècle je crois, en terre d'Ifriqiya avant d'être chassés par les pierres ensorcelantes de Madghis qui s'élevaient au-dessus de leurs foules et venaient tomber, fracasser leurs têtes enturbannées. Il y eut des femmes yéménites, des princesses qui, subjuguées par la vaillance farouche des guerriers de Madghis, la fertilité rocailleuse des terres argileuses parsemées de forêts de cèdres, d'oliviers, de figuiers, de baobabs et la luminosité enivrante des côtes méditerranéennes, la fluorescence végétale des forêts vierges de l'Atlantique, ont ceint à leurs lourdes hanches la fouta, porté la cruche et en tiffinagh se sont tatouées, chez les oracles, orteils, paumes et front. Les Arabes étaient nos frères avec lesquels nous partagions l'amour de la Pierre. Ils avaient, eux, la Pierre Noire de La Mecque bien avant la Révélation et nous, les Pierres Ocres,

apprirent la désignation d'une femme à la tête de ces « Kofar »! Moi! Dihiya, reine d'Ifriqiya, ses montagnes au roc fauve, ses rivages émeraude des éléphants d'Ifri, ses déserts chameliers des caravanes de Tombouctou! Madghis, l'Amghar du mausolée Medracen, tout de pierres vêtu, qui a le pouvoir de traverser les siècles des tribus des Aït Lakhart, a fêté mon intronisation, à ma naissance, des monts, rouges, rocaillieux d'Awres, aux terres grasses de T'fouda encore semées en ce temps-là d'éclats de silex lumineux, étoilés; pierres serties de rubis, écarlates, acérées, aux Royaumes de sables tamisés, à ceux des Pyramides du règne de Néfertiti et encore plus au-delà. Hé chauffeur, dis à ton scribe de noter cela pour la postérité: Je vous laisse imaginer l'ébahissement de ce chef arabe musulman, oui, ce Hassan réduit à se mesurer à une femme, juive berbère, paganique, libre, au regard de feu, Reine des monts, des mers, des fleuves, des cieux, des dieux, des sources, des éléphants, des lions, des oliviers, des figuiers, des terres rouges, des villes et des villages, des routes de la soie et de la paix, des religions païennes. Et, les officiers sortis de la tente, Hassan enrage, maudit Oqba et son épée, impuissants face aux flots océaniques et méditerranéens; les mers n'ont pas été « islamisées ». Une femme! Une reine! Par Allah et son Prophète! Il est temps d'en finir avec ces « Kofr »! Hé Receveur, Hassan, jusque-là n'a rencontré de résistance contre ses

que des milliers de têtes de populations civiles, victimes des carnages du terrorisme islamiste, jetées dans des charniers et emportées par les eaux n'ont à ce jour aucune sépulture, et pis encore, que leurs assassins sont auréolés de gloire! « Non, c'est non! » La K.7 d'El Anka crépitait, le vent dehors se remettait à tourbillonner, signe que les flocons de neige s'amassaient dans les cabines éventrées de ses Tractions amoureusement collectionnées. Les bourrasques de l'Histoire lacéraient la nuit de K. et l'embarquaient dans ce rallye barbare d'un car en partance avec ses voyageurs, crânes, anciens de la Toussaint, Madghis, Massinissa, Tarik Ibn Ziyad, Ibn Toumert, Kahina, mêlés dans ce cauchemar ambulante

Kahina aurait dit (Selon K.)

Oui, quel ne fut l'étonnement de ce Hassan, nommé gouverneur de l'Ifriqiya, à la tête de la plus puissante armée du Hedjaz qui eût jamais mis pieds et épées en terres berbères, quand, s'enquérant auprès de ses fidèles lieutenants si, après tant de conquêtes, de saccages, de viols, de massacres, déguisés en « ouverture », en « propagation » de l'islam, il put encore rester en cette terre indomptable d'Ifri qui m'en légua les clés des ancêtres, celles du Medracen, quelque prince berbère qui survécût après le pauvre Kuceila qui, bien qu'ayant embrassé l'islam, a été traîtreusement tué par les soldats de Oqba Ibn Nafa, ses officiers, maudissant Satan, lui

colonial, détruit les quelques tableaux de peinture de collections rarissime, accusées de néocolonialistes, donné la chasse à son groupe de jeunes résistants berbérissants chantant ou poétisant leur combat depuis le Printemps berbère aurésien au nom de la reine chawiya Kahina. Et c'est par un « Non » énergique qui grossit dans son palais, s'enroula dans sa gorge et, telle une muraille de pierre emportée par les eaux, affola les battements de son cœur qu'il redescendit vers le nord et, la main en visière, chercha son troupeau de vache éparpillé vers le nord, sur la plaine maintenant éveillée, palpitante, frémissante de ses herbes, de ses anciennes vies de pierres taillées, tel un nourrisson libéré de ses langes. En son centre, sur le tertre familial aux yeux de K., le Mausolée sacré de Madghis ouvre ses portiques de roches ciselées par les maçons de Néfertiti, à une petite fille des Aurès, Dihiya, venue avec son père célébrer la fête du Printemps au Mausolée des Rois ancestraux. K. dit « Non ! » mais la missive officielle tentait de fausser la véritable histoire de la plaine de Medracen, sa plaine aussi, sur laquelle il avait décidé de vivre, d'élever ses enfants, de traire ses vaches, de remettre sur « roue » un jour sa chère Traction, la « 11 légère » et de faire un pèlerinage à son bord, au Mausolée. Comment, se dit-il, officialiser la langue amazighe en l'injectant dans une constitution dont l'article charpente est « L'Islam est la religion de l'État », un article qui annihile tous les autres qui garantissent formellement la liberté de culte, de pensée, d'opinion et d'expression ! Et puis, qu'est-ce cette histoire de quelques « crânes rapatriés » alors

fidèle, arrachés enfin des mains étrangères et s'apprêtant à goûter au repos éternel sur leurs terres irriguées de leur sang vermeil, au moment même où s'ouvre une page glorieuse de notre éternelle Algérie : l'officialisation de la langue Tamazight. Pour l'accomplissement de cette honorable mission dont vous mesurez sans nul doute la gravité nationale, nous avons l'immense privilège de nous adresser à votre honorable personnalité, afin d'honorer le sanctuaire de nos ancêtres dont vous connaissez intimement les terres et l'architecture, sur le territoire duquel vous vivez, pour réaliser cette mission en prenant attache avec nos services dans les plus brefs délais... ».

K. froissa d'un geste nerveux la missive administrative et s'en alla vers ses carcasses de Tractions farfouiller, pour calmer ses nerfs, dans leurs boyaux de fer rouillés ici, dans le moteur de sa « 11 légère » les pistons givrés, là, dans sa « 15/16 », ancienne quinze chevaux piaffants, l'arbre de transmission pendouillant. Avoir les mains dans le cambouis, sur le pis des vaches, à la racine des herbes ou dans le gras des mottes de cette terre généreuse d'El Madher, se remplir les yeux au lever du soleil, ou même quand il peine à percer les nuages gorgés de pluie ou tissés de neiges, de l'imposante sépulture de Madghis, l'ancêtre de la Berbérie, l'avait éloigné, pensait-il, de ce que venait de lui rappeler, par ses termes ronflants, insipides, hypocrites, faux dans leur grandiloquence, ce courrier de ceux qui, en 1988, date à laquelle, il avait quitté la ville, ont dépêché leurs soldatesques pour investir le commerce paternel, un ancien café

jeunesse, K. inaugure la naissance du jour blafard avec le Santon berbère se faufilant dans ses paupières. Cette matinée-là, pourtant, ce n'était pas le brouillard, certes épais, qui l'empêchait de voir surgir la Pyramide des tréfonds de la terre, comme des abysses du temps, mais une profonde inquiétude qui tenaille son esprit depuis quelques jours. Son épouse, Faïn, et ses deux filles, Kahina et Ifri, étaient revenues de la ville avec, lui semblait-il, une grosse enveloppe portant le sceau officiel des autorités de la Préfecture. Faïn, d'un geste négligé la lui avait remise en faisant la moue et K., qui avait fui la ville pour ses lourdeurs bureaucratiques, l'avait jetée dans un amas de cassettes audio du Phoenix El Anka qui, comme le Medracen, était, pour lui, une voix des racines. Puis, se ravisant, sur l'insistance de son épouse qui le rappelait, toujours avec cette moue d'enfant sur ses oublis, plutôt sur ses errements d'artiste, il crut lire, négligemment, une dépêche officielle, qui avait, la veille, fait la Une des médias et dont Faïn préparait un article pour son journal.

« En l'honneur du rapatriement des crânes de nos valeureux chouhadas, l'État algérien a décidé de les inhumer, afin de leur donner une sépulture à la hauteur de leur symbolique et des valeurs sacrées du 1^{er} novembre 1954, au Mausolée du Medracen, aux côtés de nos valeureux ancêtres qui ont abreuvé de liberté notre terre, depuis la nuit des temps. Nous avons choisi ce lieu hautement symbolique pour inhumer les crânes des chouhadas de notre guerre sainte contre l'In-

RALLYE BARBARE

Rachid Mokhtari

A T'fouda, dans l'éblouissant paysage de l'hiver qui bleuit de ses morsures les terres ensommeillées de la plaine, se dresse une bâtisse, d'un seul bloc, solitaire, que le brouillard épais, à cette heure auro-rale, enveloppe de ses tissus vaporeux. À quelques jets de pierres vigoureux vers le Nord, quand les nuages noirs s'arrachent aux quelques sentinelles du royaume de ruines qui les avaient amassés et massés sous l'enclume de leurs ténèbres d'acier, le dôme du Medracen, mausolée des rois numides, naît, souverain, au regard de K. tourmenté. Depuis une vingtaine d'années qu'il avait quitté les turbulences de la ville pour venir vivre tel un Ermite dans cette ferme « dont chaque motte respire mes ancêtres », aime-t-il rétorquer à ses détracteurs, K. n'a jamais failli à ce rendez-vous de l'aube avec son Mausolée royal. Avant de traire ses vaches et les conduire aux pâturages brouter les herbes préhistoriques, avant d'aller, pour son bon plaisir, se recueillir dans son cimetière de voitures, dans le coin sud de la cour, à ciel ouvert, une vieille collection de quatre Traction, vestiges mécaniques de sa turbulente

toi
dont la voix tapisse les rêves

de ceux qui tressaillent en silence
lorsque la lune est lourde de présages

ils s'écartent à ton passage
ils connaissent le prix de ces choses-là

la gloire la fièvre les trophées le feu
que tu ordonnes

il y a ces signes dans le ciel
à nous autres indéchiffrables

il y a cette impatience
qui couve en nous comme une douleur

au cœur de la mémoire numide
incendiée

il y a cet emblème
sa soie est celle du désir

ses lueurs celles de tes yeux
d'amour féroce inaccompli

À LA MÉMOIRE DE LA PIERRE NUMIDE

Amin Khan

Ô toi
poussière sublime

sang tenace
cercle de fer de nos âmes

chant ancestral
déchiqueté par le vent

mains ouvertes
pour le labeur et la peine

pour le recueil
des promesses du ciel

toi
au corps nécessaire
comme la pierre
comme l'eau d'abord inaccessible

— Je ne sais pas!!!

— On va s'occuper de vous, ne vous inquiétez pas. Je m'appelle Sofia, je vais prendre soin de vous, pas de panique monsieur, nous arriverons bientôt à l'hôpital. Le soleil, la fatigue de la course. Mais que faisiez-vous sur le Medghacen!?

Je ferme les yeux et m'endors, calmement, placide, un sourire poli, rasséréné par la belle Sofia et par sa bouche carminée, tranquille, libéré du corbeau ; je serre la main sur la petite amulette rassurante de Tanit...

Pourquoi me fait-elle penser à cette Cléopâtre inscrite maladroitement dans les Péplums les moins créatifs? Je ne sais pas? Incapable à vrai dire de répondre puisque je suis déjà abasourdi, anesthésié par sa présence inopinée, inexplicable.

Juste devant la fausse porte qui nous fait face maintenant, le vertige et la surprise me prennent de court. La porte s'ouvre et les pierres nous livrent un passage vers un long couloir.

Elle me prend la main, je la suis malgré moi, malgré la terreur qui m'envahit, mes jambes qui tremblent. Elle se tourne vers moi, surpris, et me gratifie de son baiser de lave venu des anses de Santorin ou de je ne sais d'où!

Le noir envahit ma tête, je ne vois plus rien et semble m'évanouir dans le nuage invisible de son parfum de cannelle, de myrrhe et d'encens. Tanit me prend de court et Baâl Hamon rit de toutes ses dents dans ce tourbillon amoureux.

Je l'accueille dans mes bras, succombe à l'obscurité du lieu, et oublie qui je suis en fermant les yeux, hypnotisé par ses lèvres carminées devenues un brasero sensuel...

La lumière clignote au-dessus de moi, je sens que je suis allongé sur un lit confortable. Elle, penchée au-dessus de ma tête me pose la question fatidique...

— Comment vous appelez-vous monsieur?

Le vertige et la peur ayant gagné, les larmes aux yeux, je réponds

rehaussée d'une sorte de bague étrange aux reflets magiques.

— Mais comme tu vois, mon ami, je suis encore là, vivante, bien vivante n'est-ce pas ? Les gens, l'histoire, les princes et les rois ont voulu faire de moi l'expression d'un butin de guerre, d'un trésor venu des rapines et des batailles de l'histoire, mais, vois-tu très cher Azzou, je suis une femme libre, protégée de Baâl Hamon ; la ciguë, les aspics et les dagues pointues me sont témoin ; je n'appartiens à personne !

Elle n'attend pas ma réponse, continue à monter, elle veut atteindre le panthéon de cet immense monument dont je ne connais ni le nom ni la fonction, juste cette porte qui nous surplombe, murée pour l'éternité.

Elle, Sofia Nisbey, fille de Harry Drubal le général devenu homme d'affaires, amoureuse de Massi, le chef, vaillant et guerrier, mariée au vieux Syphax, trahi par ses rhumatismes et ses liens suspects avec de puissances interlopes, me regarde, s'approche de moi, et m'embrasse cette fois fougueusement. Ses lèvres instillent cette note d'encens que plus jamais je n'oublierais.

J'oublie ma fatigue et la suis vers la porte.

Elle se meut dans une mise théâtrale, enjouée, le rire limpide fait de naïveté et de venin transparent aux odeurs de benjoin, de myrrhe et d'encens, encore et toujours, comme une signature odorante qui dépasse les siècles, qui défie la mort.

J'ai été offerte à un autre, il s'appelait Syphax, roi numide, vieux, fragile et décati par le temps, je l'ai honni de peur de le haïr...

Elle se lève, me tourne soudain le dos et regarde vers l'est. Elle me désigne une porte qui semble murée dans un impossible accès. Elle me prend la main et me fait lever doucement. Nous escaladons ensemble les pierres dans un parcours qu'elle semble connaître par cœur. Je suis anéanti, essoufflé, j'essaie de la suivre. Pas un souffle en plus, pas le plus petit halètement ne perturbe sa course vers la porte.

Tout en gravissant les pierres, elle continue son récit devant ma mine éberluée. Je crois nager en plein délire. Le drapé virevoltant de sa tunique laissant de temps à autre apparaître deux jambes longues diablement fuselées, j'invoque Eschmoun et Dermech et supplie Didon et Elyssa de la laisser encore un peu avec moi...

Elle – impassible – oublie mes suppliques et continue de monter vers la porte. Je la trouve encore plus grande, vaillante, une vraie princesse!

Dans un arrêt miraculeux, qui me laisse un peu souffler, elle se retourne, me toise du haut de sa pierre de taille aux dessins bizarres, et me lance dans un sourire narquois.

— Tu sais, Azzou, on dit que je suis morte à Cirta en 203 avant ce sacré Jésus et que je suis une reine déchue de Numidie. Apparemment, je suis aussi un peu d'ici.

Elle éclate encore dans son rire de colorature... Elle me prend le menton dans sa main arachnéenne

fatidique de sa venue, de sa présence, je la sentais, là, physique, adossée à une pierre, me faisant encore face, caressant de ses longs doigts de princesse les éléments qu'elle regardait avec une sorte de nostalgie qui mettait des perles brillantes dans ses yeux.

Je concède à me lever et mettre un coude sur les arêtes coupantes de ces pierres millénaires. Elle s'approche encore doucement de moi et me donne le plus beau baiser dont les siècles se sont fait témoins, une sorte de baiser-papillon qui me fait frémir jusqu'au fond des tripes, et elle me lance dans un zéphyr qui semble venu de Vénus...

— Tu sais!

Je réponds!

— Non, vas y, raconte!

Et elle se lance dans un récit; elle m'impose sa monographie lancinante, roide dans ses mots, impassible face à sa destinée qu'elle estime derrière elle. Son corps est un cadeau des Dieux, je sens le poids de plume de sa tête sur mon épaule.

— Je suis née à Carthage en 235 avant Jésus-Christ et on raconte, dit-elle dans un rire fulgurant en touchant de ses doigts le talisman de Tanit tatoué au creux de son poignet, que j'étais d'une beauté magnifique; tout le monde me désirait. J'étais l'enjeu de plusieurs défis guerriers: les hommes me désiraient et tous les aguellid espéraient m'avoir dans leur couche. J'ai aimé un homme, il s'appelait Massinissa, il était jeune, beau et vaillant, l'étoffe d'un prince tu vois!

Était-elle peut-être Aïché la circassienne, Arcinoë la mystérieuse disparue, ou bien la mythique Tin-Hinan, reine d'une sorte d'Atlantide inoculée par quelques divinités bienveillantes au milieu d'un archipel de sable?

Il faisait de plus en plus chaud et le fait que j'essuyais la sueur de mon front avec les reliques de mon brassard en me frottant ensuite les yeux ne faisait point disparaître cette apparition qui s'approchait encore plus de moi.

Comment expliquer aussi ce parfum, fait d'encens, de cannelle, de myrrhe, et de ce benjoin entêtant qui confirmait le mystère de sa carnation lumineuse rétive à mes multiples interrogations.

Elle était belle, tout simplement belle, le corps enveloppé dans une sorte de tunique au délicat friselis d'étoffe écrue, la taille enserrée dans les liberticides bandes d'un tissu soyeux, un velum à la limite du transparent bleu clair. Aucun bruit superflu ne jaillissait de sa bouche lumineuse, juste ces phrases murmurées comme des baisers timides, des baisers de première fois...

Elle semblait me connaître, me disait que je ressemblais à Massi, un ex qu'elle avait connu l'espace d'une nuit seulement. À croire que ce Massi en question l'avait sans nul doute plus marqué que son autre gus, là, Syphax dont elle me décrivait le luxe dispendieux du palais et des cadeaux qu'il lui offrait dans une grandiloquence sans doute toute numide.

Devant mes yeux ébahis et ma mine abasourdie, je n'eus même pas le temps de lui poser la question

noncer quelques destinées funestes? Qui pouvait me le dire, le corbeau?

Je la détaillais intensément en commençant à l'imaginer déjà alanguie dans mes bras, me racontant ses exploits historiques ou ses intrigues d'alcôves aidée de ses dames de compagnie, protégée par ses deux guépards et par ses servantes personnelles qui veillaient à réaliser toutes ses envies les plus improbables. Je la devinais dans mon rêve éveillé me racontant au passage ses aventures de chasse avec Harry Drubal, son père qu'elle me décrivait après avoir cité son nom comme un immense gaillard fait de muscles et de tendresse, fougueux dans la chasse au lion, attendrissant quand il la prenait dans ses bras, en signant des décrets ou des décisions importantes sur des papyrus déjà contrariés par le temps, homme d'affaires avisé, en retraite après une grande carrière de général immortalisée dans les marbres de l'histoire en compagnie d'un certain Hannibal, passé maître des éléphants et de la puissance stratégique...

J'avais peur d'elle, et de sa venue fantomatique, de son irruption post *aârâar*; j'avais peur de son ton par trop diaphane, fait de ces élans colorés marmoréens à la fragilité factice de la poudre de riz. J'avais à mes côtés la présence évanescence d'une sorte de Cléopâtre promise aux plus puissant, aux yeux de miel et au nez d'aigle, le cheveu noir et la mise carthaginoise. Je cherchais son nom dans les méandres de ma culture générale et ne trouvais point de réponse à ces mystères immémoriaux.

pour domestiquer les Aurès et faire la grande boucle si possible en moins de temps que ces nombreux blancs aux yeux bleus, venus d'autres contrées nous montrer comment courir derrière les endorphines.

La tête baissée sur mon maillot de corps, j'essaie par ultime coquetterie contrite de cacher mon numéro 5 brûlé par ce mystérieux cigare offert par le numéro 1958, Ricardo Arrias, le Cubain qui ne devait pas être très loin de la ligne d'arrivée maintenant.

La belle s'approche de moi et s'adosse à mes côtés dans une complicité tactile qui m'arrache de fait un soupir gorgé des émanations de son parfum envoûtant. Elle m'achève, la tête sur mon épaule, et me raconte dans un souffle toute sa vie trépidante.

Elle plante ses lances piquantes sur mes neurones endoloris, et brise en mille tessons de céramique la dernière résistance que mon intelligence essayait de confronter à ses dires étranges en se gaussant d'avoir eu la chance d'assister à quelque guerre punique et d'avoir pu contribuer de plusieurs manières à inscrire cette guerre dans l'histoire.

J'en voulais pour preuve son très beau tatouage de Tanit sur le poignet et sa foi assurée par l'étrange talisman qui trônait sur son cou gracie.

Le funeste volatile, lui, persistait dans une déroutante valse céleste à dessiner de curieuses calligraphies sous les nuages. Il semblait me dire qui Elle était. Se pourrait-il aussi qu'il me délivrât dans ses écritures ésotériques célestes quelques messages de mort. Était-elle venue du monde de « là-bas » m'an-

miracle sur deux hanches assez larges et des jambes que je devinais magnifiques, esquissées dans des traits limpides sous un drapé fait de discrètes dissimulations et de révélations.

Ajouté à cela, ses gestes fluides à la limite du chorégraphique, posés comme des caresses sur tout ce qui l'entourait et qui entérinaient de fait l'expressive manifestation d'une sorte de port altier aux charmes non négligeables. Elle n'était pas n'importe qui, cela est sûr. Elle n'était pas un fantôme, ça, j'en suis sûr. Je pense qu'elle est loin d'être juste une ombre fantasmatique apparue à moi comme dans un vaisseau fantôme, *le Flying Dutchman*, qui rejaillit soudain des flots mystérieux du Triangle des Bermudes. Mais il est logique qu'elle soit issue de mon ingestion suspecte des fumées pimentées de mon *aâraâr*, puissant article de cette dive Batna, délicieusement marié aux effluves délicats de mon *Roméo et Juliette* cubain. Dans ce paradis-enfer odorant, la cannelle, la myrrhe, le benjoin, réunis dans un tourbillon oppressant ne trompaient pas mes sens : cette femme était bien réelle, elle esquissait une sorte de pirouette, et s'approchait doucement de ma curiosité languide, mes yeux grands ouverts par l'étonnement, et tout dédiés à ses gestes un peu sibyllins.

J'étais assez surpris de cette apparition. Le soleil tape fort présentement. Je commence à me rappeler des cris du public, des encouragements des fans, du signal de départ, du mouvement des marathoniens qui faisaient de leur running un acte de bravoure

que la norme, clignant indéfiniment comme pour bien accentuer la séduction écrite dans ce regard direct, à la limite de l'effronterie malicieuse d'une jeune femme trop sûre de ses charmes, me faisant face comme dans un défi un peu canaille, un peu ironique, la tête enserrée dans une sorte de serre-tête à l'éclat soutenu par quelques perles aux formes irrégulières irisées, de la nacre sans doute.

Le brillant qu'elle portait sur le cou serti dans une sorte de collier de cuir me semblait vrai ; il brillait du feu de Dieu et je crus reconnaître au creux de son poignet une figure que j'avais vue dans les ruines de Carthage un jour de visite obligée au milieu de vestiges oubliés d'Eschmoun et de Dermech. Elle ressemblait à cette belle Tanit, déesse magnifique désignée aujourd'hui par le show-biz comme une simple récompense qu'on offrait en prix lors du festival du film.

J'avais la très marquante sensation que cette fille venait de la mer. Ce n'était pas une Vénus à la beauté fulgurante, mais son nez aquilin, et ses yeux d'un noir intense lui donnaient du chien. Cette peau diaphane, comme préservée du soleil du Medghacen, une chevelure de soie, noire, intense achevait de l'inscrire dans l'ordre des princesses. Elle semblait venir de loin. Je devinais une poitrine menue, protégée par un drapé qui laissait deviner – percevoir – juste une petite note de musique à la naissance de ses seins, comme pour titiller une curiosité, une envie illicite d'aller à la quête de ses deux petits fruits insolents, le tout posé comme par

Je suis incapable de changer de position ; la tête en bas et les jambes surélevées, seule la fameuse étoile bleue de mes baskets high-tech spéciales marathon « Spike » emplissait mon paysage immédiat.

Le vertige m'accroche à la peur que j'ai de tomber, alors que je suis étalé de toute ma longueur sur des pierres immenses qui me scient le dos.

Je crois que je vais m'évanouir, me laisser aller aux vagues tressautements du destin, dormir, aller embrasser Morphée sur la bouche en espérant que c'est une femme. Transcender ce vertige pour en faire un chemin vers le sommeil, vers les rêves les plus libres.

Mais je n'arrive à rien, je ne sais plus où je suis et la mémoire s'échappe de ma tête comme un filet d'huile d'olive qui se répand sur une mauvaise macédoine.

Je m'en allais vaquer à mes pensées obscures complètement dépressives quand un éclair fugace mais puissant passe par ma tête pour traverser ensuite tout mon corps comme dans un mauvais épisode de la guerre des étoiles qui ferait de moi le dindon de l'espace traversé par les sabres laser les plus dingues. L'espace de cet éclair, je ferme les yeux pour un voyage interstellaire. L'éclair est aussi fulgurant qu'un *fix* de morphine.

J'essaie de me lever, tente un coude timide sur la rugosité de la pierre qui me soutient, et c'est là qu'elle apparut, souriante, la bouche colorée d'un carmin venu d'une autre époque, brillant de mille feux, les yeux aux cils plus beaux et plus longs

roulées sur les cuisses de quelques hétéaires socialistes en plein centre de La Havane sous les litanies livresques de « liseurs » de belles aventures picaresques, pour éduquer les masses laborieuses et les inclure sagement avec les idées piquantes de notre super *aâraâr* pointu, piquant, acré, et fondamentalement létal pour toute forme de lucidité. Mais cette fois, cette léthargie obligée me gênait plus que tout autre chose. Étala sur un fond dur comme du granit, je ne sens plus mon dos, écrasé par le monument géant, même le ciel me paraît petit. Dieu comme le *aâraâr* est piquant.

Le tournis continuait lancinant et je me sens enfin en correspondance avec le corbeau dans le ciel, avec cette impression de le rejoindre.

Toujours allongé dans une position incongrue, je plane, je vole sans battre des ailes ; je n'ai pas d'ailes, étonné de me voir virevolter, descendre, monter, faire des pirouettes, des loopings en me prenant pour un avion qui ironiserait sur les lois de la physique en défiant l'apesanteur au rythme des coassements rugueux du corbeau qui m'impose, de par ma position, la cadence continue d'une migraine impossible qui me visse la tête dans un étau me causant une douleur intenable. Tout cela ressemble à un mauvais épisode d'un documentaire où la survie est l'essentiel.

Il me semble lire un épilogue écrit à l'avance par le grand architecte, le chef de projet de la vie en cours. La vie défilait sous mes yeux impressionnés par l'immense lumière qui se reflétait sur ces pierres étranges.

Un peu de lumière revivifie mes reliques de lucidité. Je commence à saisir les bribes de vents qui m'éclairent de brèves petites infos, je devine que je suis le rescapé d'une course magnifique inscrite dans les hauts plateaux d'une contrée étrange. Les Aurès, chatoyantes, fières et rebelles, le running au service du patrimoine, le défi, le challenge, la course glamour des athlètes médiatisés, le muscle fin, les os pointus pour la beauté de ces pierres ingrates, peu intéressées par ce qui se raconte depuis des siècles. Je devine qu'ILS sont sans nul doute tous venus ici, Gaïa, Massinissa, Salah Bey, la Kahena se succédant dans ces pierres immenses pour faire l'histoire agitée des Bérézina répétées en opposition au rythme statique de cette bazina immense.

C'est en Algérie je pense... Je ne sais plus, ma mémoire s'est envolée dans les fumées de ce cigare appuyé de quelques herbes illicites cueillies en pleine cambrousse ou dans le secret de quelques rocailles interlopes. Où bien alors, suis-je bien malgré moi en milieu urbain, dans de curieuses venelles dédiées à tous les maux, et sans doute aussi à tous les vices, à toutes ces audaces délicieusement subversives qui peuplent mon quotidien sordide, fait de longues séances de fumette et de consommations illicites tous azimuts, ouvrant la porte au passage à quelques aventures avinées faites de cadavres en verre et filles paumées, avides de rencontre d'une nuit sonnante et trébuchante rencontrées ici et là!?

Quelle bonne idée, inédite – soit dit en passant – d'agrémenter ces herbes cubaines, si gentiment

Les nuages ont disparu, pas une forme blanche ne vient rassurer la portion de ciel que j'observe, les larmes aux yeux. J'essaie du mieux que je peux de lever le regard vers un firmament muet de tout espoir. Harassé, je ferme les yeux, baisse la tête et pleure encore, les paupières plongées dans un lac salé plein de mes découragements.

Je ne sais plus ce qui se passe alentour, ma tête tourne dans tous les sens, 360 degrés de vide sidéral.

Ici, le temps s'arrête net sur mes peurs, le temps est injuste avec moi, il ne me délivre pas ses secrets ici bas. Le temps est méchant, impitoyable ; il veille à ne jamais inscrire sur ces pierres complices ses secrets. Je ne sais plus quoi penser, la peur devient panique, je ne peux même plus bouger un cil, un désarroi inoxydable prend le pouvoir sur tout mon être ; je suis tétanisé par la peur, la peur indicible de ne plus être personne. Le corbeau a failli gagner. Dans un sursaut de dignité, je relève la tête, essuie mes larmes...

L'oiseau, insistant, patient comme la mort elle-même, tourne toujours d'une manière concentrique, je le sens saliver sur l'espoir de mes décharnements.

Mais il faudra qu'il attende, qu'il soit encore plus patient. Je n'ai pas l'intention de me laisser taillader par un bec acéré tout juste créé pour lacérer des chairs, sans aucune autre possibilité intelligente ou intelligible de faire autrement.

L'oiseau me fait peur ; il est pour moi la mort, la désolation, le désespoir et la marque noire qui met fin à ma route.

Là-haut ou en bas, je ne sais plus ! Le corbeau, comme un point noir sur mon horizon inversé, me harcèle de ses coassements, il insiste avec rage, il a faim ! Dans ses insistances équivoques, il m'impose une lutte inégale. Lui n'en veut qu'à mes yeux, je n'ai point l'intention de les lui laisser gober. C'est tout ce que j'ai pour pleurer.

Le temps passe, les pierres immenses, impassibles sont ses complices ; elles me font peur ; le soleil est trop haut, le ciel est bleu. J'ai mal aux yeux.

Les pierres me narguent. Ici, j'ai la gênante sensation qu'elles ont une âme et qu'elles parlent un curieux langage. J'ai la certitude que ces minéralités désespérément ésotériques savent parler la langue des fantômes, qu'elles dialoguent avec les esprits. Je le vois dans leur curieuse disposition, dans ces dessins impossibles creusés dans la pierre, et puis aussi dans cette curieuse litanie que le vent fait chouiner dans les interstices qui me séparent d'un autre temps.

Et puis encore, ce corbeau qui crie sa faim sur moi, qui se rappelle à mon mauvais souvenir, qui me voit de haut, me pensant décédé, impatient de déchirer mes yeux de son bec acéré.

J'essaie de me lever, peine perdue. Un poids immense fait de fatigue et de lassitude, écrasé par les kilomètres courus, imposés par un énième marathon cathartique m'assigne maintenant la position allongée sous le ciel limpide, paradis du corbeau affamé.

philologiques. Mon regard se trouble et rejoint les nuages gris dans une mystérieuse combinaison de sens en alerte. J'ai peur du corbeau ; il est à l'affût, il a le ciel pour lui et je n'ai pour l'affronter que des côtes dénudées par le feu d'un cigare détestable, décharnées par les multiples courses entreprises dans les reliefs du Maroc, dans le Vercors ou ici, autour des Aurès...

Rien, ni personne alentour ; rien ici ne me parle, je suis seul. L'horizon est fermé par le flou qui emplit mes yeux. Seul le corbeau, maître de son ciel, continue de tourner dans l'azur. Quelques bruissements d'arbres chatouillés par un vent sympathique se font entendre. Juste ce qu'il faut pour ne pas avoir froid, mais j'ai quand même froid, j'ai froid dans le dos. Je ne sais plus qui je suis ; je ne sais absolument pas où je suis.

Je suis complètement sonné, je succombe à une tristesse envahissante, gavé de ces idées défroquées, libérées de mon optimisme tout naturel. Je me sens partir, mourir un peu, frustré, pauvre, délesté de toute mon ambition de vivre.

Dans cette arrivée inopinée au centre du rien sidéral, le ciel me tombait sur la tête et je ne savais plus comment vivre, avec justement la tête à l'envers ; toutes mes perceptions étaient perdues. J'essaye dans un sursaut d'orgueil d'avoir le luxe d'une désillusion altière pour éviter la désagrégation de mes pensées, mais face à cela, il y a juste cette dépression qui m'impose sa présence, comme une chape de béton sur le réacteur de Tchernobyl.

pour me créer un but à atteindre, la ligne d'arrivée étant la fin de ma vie à chaque souffle dédié aux kilomètres, un peu comme Sisyphe surlignant son mythe à l'horizontale cette fois, mais dans une sorte de lutte impuissante. Sisyphe est mort à quelques centaines de mètres du but. J'avais fini par abandonner au trentième kilomètre. Un point de côté vraiment méchant me sciait les flancs et me plongeait dans les bras de Morphée, les yeux fermés en moins et la douleur fulgurante en plus.

Tout autour de moi, l'immense tumulus de pierre veillait à m'écraser de sa grandeur millénaire. Je ne sais plus où je suis et je ne reconnais pas la végétation qui m'entoure. Tout semblait sorti de nulle part comme dans un décor en carton-pâte au service d'une superproduction tournée dans les sables complaisants des dunes de Ouarzazate, au Maroc.

Je regarde tout autour de moi, parcourant les 360 degrés réglementaires pour tout curieux qui se respecte et qui ne sait plus où il est. J'essaie de trouver une porte ou un accès dans cette immensité rocailleuse, rien n'apparaît, rien ne me parle. Les portes étaient fausses ; elles étaient murées, muettes, figées dans leur éternité minérale et les colonnades m'écrasaient d'un savoir que je n'ai pas. Par Dieu, qui a mis cette immensité devant mes 42 kilomètres et quelques ? Aucun djinn, aucune sorcière ni mage n'étaient là pour me donner la réponse !

Atterré, je nage en eaux troubles, je suis en apnée, la bouche encore durcie par les relents du tabac puissant et le corbeau attentif à mes errements

répondait de son vivant au doux nom de Roméo et Juliette. Ce cigare en particulier est effilé, oblong. Je me souviens d'avoir lu quelque part que c'était le havane préféré du « Che », un être hors du commun, pour moi le modeste coureur devant l'éternel, un peu artiste, un peu bohème, très pauvre devant l'excentricité d'un monde indicible, qui restait éternellement amoureux de l'épique histoire de ce monde révolutionnaire, romantique qui a peut-être embelli mon siècle préféré. Normal que je me sente en communion tabagique avec cet immense personnage. Pour l'instant, ce lien issu d'une passion fulgurante, ardente, avait juste brûlé la moitié du numéro 5 de mon dossard, grâce auquel j'ai compris que je devais être un coureur de Marathon perdu au milieu d'un gros tas de pierres qui m'écrasait de son immensité minérale, la tête en bas et les pensées perdues en haut.

Dans une absolue lassitude, je suis perclus de fatigue, les côtes ulcérées par les pierres du monument. Il me semble bien n'être qu'un minuscule naufragé dans cette vaste cuvette qui fait écho à une immense bazina, ou du moins à ce qui y ressemble, faite de cailloux énormes, étrangement décorés de fausses portes, de colonnes romaines, numides, de croix bizarres, de trucs égyptiens, le tout très large, très haut.

La question était simple: qu'étais-je venu faire dans cet étrange endroit, perdu au milieu d'une vaste contrée presque aride!? Je savais juste que je devais être un semblant d'athlète au running facile et à la course vers la gloire tout juste suffisants

LA FILLE DES PIERRES

Jaoudet Gassouma

Le corbeau qui tournoyait inlassablement dans le ciel gris avait fini par me filer le tournis. Ce sacré oiseau de malheur me croyait sans doute déjà mort. J'étais présentement loin d'être le fameux Caïn biblique, assassin forcé et maudit pour toute l'éternité humaine, devenu le sujet de discussion ultime avec un piaf de malheur, venu du ciel lui apprendre à enterrer les morts, suite à un épisode qui fût le premier de l'histoire de l'humanité. Caïn tuant Abel, après la pomme de la discorde du père et de la mère, l'élimination du frère pour des raisons profondes que seul l'Omniscient connaît.

Allongé sur un petit contrefort rocailleux, la tête à l'envers et les sens dispersés, je n'avais pas grand besoin de philosopher et de savoir comment enterrer un mort ! Surtout si le macchabée en question était moi !

Dans ce vertige étrange, ma bouche est pâteuse, je sens ma langue devenir de marbre ; un goût de cendre m'emplit le palais, la fumée du cigare avait fini par achever ma résistance ; j'ai trouvé sur ma poitrine les vestiges éteints de ce cigare cubain qui

de Charlie Chaplin, scène finale. Mais, au lieu de la silhouette si expressive de Paulette Goddard au bras de l'acteur, une pauvre bête trotinant difficilement.

Un bruit de moteur. Un camion qui arrive, s'arrête. La cabine est pleine. Le chauffeur lui fait signe de monter sur la benne. Le chien aboie. Noureddine le prend avec lui, un regard sur le Medghacen, désespérément seul au milieu des terres.

Quand le camion les dépose à la périphérie de Batna, ils empruntent une ruelle, croisant quelques personnes qui les regardent bizarrement, parfois avec amusement. Dans les vitres d'une voiture, Noureddine comprend pourquoi. La benne avait servi à transporter des sacs de plâtre. Il en restait au fond. Le vent en a disséminé sur ses vêtements, ses cheveux, ses sourcils. Il est presque aussi blanc que le chien, figures fantomatiques et risibles à la fois. On les regarde comme l'on avait sans doute regardé le jeune homme chargé de rapporter des victuailles à ses compagnons qui avaient dormi trois cent neuf ans dans une caverne, ainsi que le relate la Sourate *Ahl el Kaf*.

L'homme et le chien débouchent ensemble sur l'avenue de l'Indépendance. Des dizaines de milliers de personnes, hommes, femmes, jeunes et enfants, couverts de drapeaux nationaux, avancent en scandant des slogans de colère avec des airs joyeux.

détour du sas où il va être endormi, dans un angle mort des caméras de surveillance, elle s'est mise sur la pointe des pieds et, avec la vitesse d'une langue d'iguane – la comparaison s'arrêtant à la vitesse – elle l'effleure d'un baiser tout en le poussant dans le dos, prévoyant qu'il va s'arrêter. Elle rit en rougissant vivement. Ses lèvres se sont portées juste entre la bouche et le nez, sur l'incurvation du philtrum. Ce n'est pas une erreur de tir. Elle sait qu'on appelle aussi cet endroit l'arc de Cupidon.

Quand il s'allonge devant l'infirmière, Myriam lui prend la main :

— Oui, lui dit-il.

— Oui quoi ?

— Je reviendrai.

— Si tu ne reviens pas, je te retrouverai.

Il sourit pendant que l'infirmière l'anesthésie. Alors, Myriam lui récite de tête *l'inconnue du Hamma* avant de lui montrer avec un sourire triomphal et enfantin le papier d'emballage sur lequel il avait écrit le poème. Puis, il sombre dans l'inconscience.

Dans ses poches, son portefeuille. À la place du poème, un bout de papier lui indiquant l'emplacement de sa voiture à Batna. Une enveloppe aussi avec une petite liasse de billets. Soudain, un halètement. Le sloughi blanc est là. Vieilli, plus décharné encore. Noureddine se dirige vers la route. Il avance au milieu du bitume, le chien à ses côtés. Il se voit de l'extérieur de lui-même. *Les Temps modernes*

par un tueur de Caligula. La lignée de Massinissa prit fin avec la mort de son dernier descendant qui n'avait pas pu échapper à son destin et, pire, avait réprimé son propre peuple comme lors de la révolte de Tacfarinas. Son assassinat provoqua cependant une révolte contre Rome menée par Aedemon.

Est-ce à la suite de cette extinction de la dynastie numide que le Qⁿ fut transféré du Mausolée royal de Tipasa au Medghacen? Juba II et Cléopâtre de Séléné avaient-ils confié la protection du trésor à des légataires de haute confiance? Ou était-ce seulement Juba II, mort veuf en 23 après J.-C. qui en avait donné l'ordre avant son trépas? Mille questions avaient assailli Nouredine.

— Allons, lui avait dit le Professeur Babreg comme s'il lisait dans ses pensées, parfois le temps de répondre n'est pas venu. Il est bien tard. Non, bien tôt! Je doute que vous dormirez après cela. Mais essayez quand même, Nouredine (c'était la première fois qu'il le nommait et peut-être la dernière). J'espère que vous mesurez toutes les conséquences de notre échange.

Et, tandis que Nouredine – pensant qu'il pourrait finir sa vie dans ce bunker souterrain avec la consolation amère d'être près de Myriam sans pouvoir jamais vivre leur amour – ouvrait la porte de la Rotonde pour le Professeur Babreg, celui-ci, en passant, murmura sans le regarder :

— Le major Higgins ne fumait pas la pipe.

Nouredine tressaille. Myriam lui a pris la main. Ils avancent dans le long couloir blanc. Soudain, au

mari, Marc Antoine, qui l'avait engendrée avec la sémillante reine d'Égypte. Une page entière était consacrée à Octavia par le couple royal de Cherchell. Un florilège d'éloges émouvants pour celle qui leur donna de l'affection et une éducation romaine sans les obliger à renoncer à leurs origines.

Juba II et Cléopâtre de Séléné expliquaient enfin pourquoi ils avaient voulu rassembler tout le savoir de leur époque. C'est dans cette partie qu'apparaissait le nom qu'ils avaient donné à Qn, le projet de leur vie: « τοόπλοτηςγνώσης ». En grec, « L'Arme du Savoir ». Ils savaient que toute puissance durable s'appuie sur la science et la culture et, sachant leurs peuples encore démunis par rapport à Rome, ils avaient voulu leur léguer toutes les lumières de l'Antiquité pour bâtir un royaume inédit de justice et de progrès. Leur fils, Ptolémée, aurait pu en être le guide. Il était le seul être au monde dont le sang mêlait, par ses parents et grands-parents, les dynasties de Numidie, d'Égypte, de Grèce et de Rome. Ils savaient qu'à cause de cela justement, leur héritier affronterait d'innombrables et mortelles jalousies. Et ils avaient ainsi placé tous leurs espoirs dans « L'Arme du Savoir ». Une fois répandue parmi les peuples de la Méditerranée, elle donnerait lieu à une civilisation nouvelle, forte et éclairée, s'étendant sur ses deux rives et riche de tous leurs apports. Les craintes du prestigieux couple de Cherchell étaient fondées. En 40, à Lugdunum, l'actuelle Lyon, alors que ses parents n'étaient plus de ce monde, Ptolémée de Maurétanie fut assassiné

de la Bibliothèque d'Alexandrie, emportée plus tard par le feu, et rapportés par l'épouse de Juba II, l'égyptienne Cléopâtre de Séléné. Des milliers de textes miraculeusement enfermés dans un point à géométrie variable.

— Quand nous sortirons tout ça, cela fera plus de bruit, et j'espère de bien, que les WikiLeaks, avait murmuré le Professeur. Je vous l'assure, le passé peut avoir des conséquences inimaginables sur le présent...

Dans la masse astronomique de ces documents jusque-là inconnus, se trouvait un texte personnel de Juba II et de Cléopâtre de Séléné. Une dizaine de pages aux accents de testament dans lesquelles ils affirmaient leur amour, né durant leur captivité à Rome. La fille de la grande Cléopâtre et de Marc Antoine, nommée enfant reine de la Cyrénaïque, dans l'actuelle Libye, n'était pas seulement belle, elle possédait une vaste culture. Comme son époux, elle venait de l'Afrique du Nord conquise par Rome. Les deux avaient vu leurs parents se suicider après leur défaite. Les deux avaient été conduits à Rome comme des trophées de guerre exhibés à la foule, lui derrière le cheval de César et elle derrière celui d'Auguste. Jamais, ils n'avaient oublié ce jour qui les avait arrachés à leur terre et marqué la servitude de leurs peuples. Dans leur malheur, ils avaient eu la chance d'être confiés à Octavia qui les avait protégés, étant la sœur de l'empereur Auguste et la nièce de son prédécesseur, Jules César. La grande dame, noble de rang et de cœur, n'avait pas songé à se venger de la petite Cléopâtre, fille de son propre

tale, une partie de l'actuel Maroc et des territoires Gétules au sud-est algérien et tunisien. Ce territoire, plus vaste que le royaume de Massinissa, avait Cherchell pour capitale. Juba II en fit une des plus belles villes de l'époque. Ami des arts et des lettres, il se consacrait lui-même à la recherche et à l'écriture. Théâtre, poésie, linguistique, géographie, peinture, urbanisme, botanique, mathématiques, histoire... tout le passionnait. L'historien latin, Pline l'Ancien, affirmait que *sa réputation de savant est encore plus mémorable que son règne*. De nombreux textes de l'Antiquité font référence à ses ouvrages mais aucun n'a été conservé. Et voilà que le Qⁿ les livrait comme s'ils étaient sortis la veille d'une imprimerie ! Les premières traductions montrèrent que Juba II, féru de culture grecque, s'était beaucoup intéressé à l'histoire de la Méditerranée dans son ensemble. Il y avait là son livre sur Rome, celui sur Babylone ainsi que ses *Arabica* dédiés au petit-fils de l'empereur Auguste. L'histoire de son peuple est présente dans son œuvre à travers ses *Libyca* surtout. Le Qⁿ comprend aussi une version complète des *Lubri punici*, ou livres puniques, auparavant attribués à son grand-père, Hiempsal II. Une fabuleuse somme sur les peuples amazighs. Le souverain savant s'était penché aussi sur l'écriture libyque et son travail donne bon espoir de la déchiffrer enfin. De plus, Qⁿ contient aussi la totalité de la bibliothèque personnelle de Juba II pour laquelle il envoyait des copistes aux quatre coins du monde et, probablement, selon le Professeur, de nombreux ouvrages

Mais là, je l'avoue, la folie me guettait. Et même maintenant, alors que nous nous sommes habitués au Point, il m'arrive de prendre ma pipe à l'envers ! Vous avez eu accès aux recherches du Centre mais nous vous avons caché jusque-là cette source énorme, incroyable, merveilleuse, et vous savez que je n'aime pas le langage grandiloquent. Nous l'avons nommée *Qn*.

Juba II avait-il découvert une forme ancienne d'informatique aux limites de la magie ? Le Professeur refusait d'aborder cette question pour l'instant. Le *Qn* était bien là, il fournissait des connaissances astronomiques sur l'ensemble du monde alors connu. Rien n'assurait qu'elles ne s'effaceraient pas, comme dans *Le livre de sable* de Jorge Luis Borges, l'un des livres de chevet du Professeur comme il l'avoua à Noureddine. Il fallait exploiter ce trésor faramineux qui allait bouleverser l'histoire. Juba II ! Quel personnage que ce roi numide qui, après la défaite de son père, le premier du nom, avait été traîné, enfant, dans le cortège triomphal de César à Rome, aux côtés du gaulois Vercingétorix et de la sœur de la grande Cléopâtre, Arsinoé. Avec un statut d'esclave de haut rang, il fut élevé par Octavia, la sœur du futur empereur Auguste, recevant une éducation princière dont il tira une phénoménale érudition et une soif insouviée de savoir. Puis, il fut affranchi par cet empereur et renvoyé en Numidie pour constituer, sous protectorat romain, le royaume de Maurétanie qui couvrait l'actuelle Algérie centrale et occiden-

Tous les efforts du Centre s'étaient alors centrés sur l'étrange lentille. Sa composition chimique était non seulement complexe mais complètement inconnue, au point que le Professeur dut rappeler à l'ordre le docteur Qom, un astrophysicien qui, dans l'excitation, suggérait des pistes extraterrestres. Certaines images de la « chose », obtenues par imprimante à sublimation thermique, avaient signalé l'amorce de plans de superposition sur ses contours. On était passés au microscope électronique à balayage qui permet des observations de très haute résolution sur la base des interactions électrons-matière. Alors, la Tétrakty des Pythagoriciens avait jailli sur l'écran !

Le Professeur Babreg qui s'en souvenait comme si c'était aujourd'hui, avait failli se renverser sur son siège. Influencés par l'exemple des pyramides égyptiennes et dans la perspective de salles funéraires aux niveaux inférieurs, on avait cherché à la base des monuments quand le « caché » se trouvait à leurs sommets et n'avait rien d'une tombe. On s'était ensuite focalisé sur un Point de Convergence géométrique et c'était un Point qu'il dissimulait ! Un point géométriquement exponentiel. Car la lentille était un point, qui s'avéra être la coupe d'une ligne, laquelle était le sommet d'un plan, lequel était composé de dizaines de milliers de carrés collés les uns aux autres, lesquels comprenaient des millions de textes inscrits en caractères de corps nanométriques ! Et tout cela se déployait dans cet ordre.

— Dans mon métier, affirma le Professeur, il faut être capable d'accueillir l'invraisemblable.

attachez la ceinture de votre esprit. Ou plutôt relâchez-la !

On avait supposé que le Q1 avait été pillé comme en attestaient des stries agressives du petit canal interne. La bille aurait été retirée tandis qu'au Medghacen, le morceau de quartz aurait échappé à la perspicacité des pilleurs. Mais les analyses au spectromètre amenèrent une tout autre explication. Il n'y avait pas eu deux billes mais une et une seule. D'abord logée dans le Q1, au sommet du Mausolée royal de Maurétanie, elle avait été ensuite transférée dans le Q2 au Medghacen. Les signatures minérales et chimiques étaient formelles. Manifestement, toute cette ingéniosité visait à protéger la minuscule lentille noire. Mais pourquoi avait-on fait passer l'objet d'un monument plus récent vers un autre plus ancien ? Le fait venait confirmer définitivement que les deux édifices étaient liés – et c'était déjà énorme – mais n'expliquait pas le choix de conditions de sécurité plus mauvaises. Encore qu'à l'époque où ce transfert devait avoir eu lieu, on pouvait supposer que le Medghacen était encore bien droit dans ses pierres. Or, les traces sur le Q1 révélaient une hâte des intervenants à la limite de la brutalité que seule une urgence quelconque pouvait justifier.

— Mais pourquoi ne se sont-ils pas contentés de déplacer le Q1, l'écrin du quartz avec sa lentille dedans ? demanda Nouredine.

— Mystère ! Peut-être voulait-on fausser les pistes ? Ou, plus simplement, disposer d'un écrin neuf comme vous dites...

pouvoir l'éclairer. Les dégâts y sont plus importants qu'au Mausolée, de grosses pierres se sont déplacées rendant problématique l'accès au repère vertical du Point. De plus, la poussière, accumulée dans les interstices et solidifiée au fil du temps, avait acquis la dureté d'une céramique. Mais la quatrième nuit, nous tenions entre les mains un deuxième quartz, à peu près de la même taille que le premier !

Nommés Q1 et Q2, les deux morceaux de quartz révélèrent au scanner, telles des veines rectilignes, des percements fins qui menaient vers leurs centres. Celui de Q1 était vide. En revanche, au fond de Q2 se trouvait une sorte d'infime bille métallique. Une fois extraite, elle s'ouvrit d'elle-même en deux demi-sphères comme tapissées de nacre à l'intérieur. Elle contenait une lentille noire et plate d'environ un demi-millimètre de diamètre.

Parvenu à ce moment de son récit, le Professeur s'était tu. En avait-il trop dit ? Ou était-il fatigué ? Noureddine lui avait proposé un dernier verre de thé, une proposition assez neutre pour signifier qu'il voulait connaître la suite tout en craignant de l'apprendre et de lier à jamais sa vie au Centre.

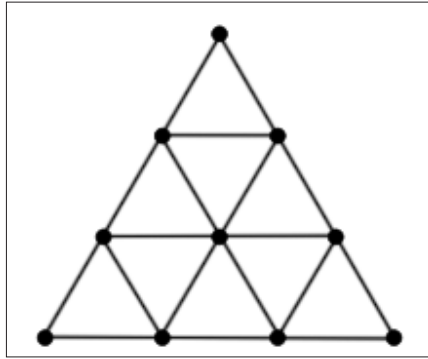
— Vous avez beaucoup d'imagination, reprit Babreg. Une immense qualité, un handicap parfois. Mais là, vous devez aller au-delà de ce que l'esprit peut enfanter, vers des rives complètement méconnues. Mais j'ai vu vos fiches à la bibliothèque... Vous aimez la science-fiction, n'est-ce pas ? Isaac Assimov, Van Vogt, Philip K. Dick et compères. Ah ! Ils ont accompagné tant de mes nuits ! Alors

algériens, on ne pouvait que spéculer. La piste fut abandonnée pour d'autres mais le Professeur Babreg, par acquit de conscience, avait voulu que l'on marque discrètement, au sommet des monuments, l'emplacement des fameux Points de Convergence. L'opération fut menée de nuit, d'abord sur le *Tombeau de la Chrétienne*, par deux jeunes archéologues munis de lunettes à infrarouge. Ils devaient placer un témoin en aluminium avec une balise électronique dans l'éboulis supérieur du monument, à la verticale exacte du Point. Au fond de l'anfractuosité qui lui correspondait, ils avaient aperçu des brillances, semblables à des débris de bouteille. Ils avaient pris leurs précautions pour les retirer sans se couper avant de constater, éberlués, qu'il s'agissait d'un morceau de quartz enchâssé dans un bloc de pierre où une alvéole avait été taillée à cet effet. Le lendemain, la roche translucide, de la taille d'une pomme informe et hérissée, avait été acheminée au Centre où la fièvre était déjà si forte que personne n'avait pu dormir. L'objet avait été aussitôt remis au laboratoire pendant que, la nuit suivante, une autre équipe grimpait au sommet du Medghacen pour une opération similaire.

— Il faut croire, commentait Babreg, que la science a besoin de la chance ! Les jours précédents, il avait plu à torrents dans la région de Tipasa et Cherchell. Un déluge ! Sans cela, nos amis n'auraient jamais vu briller le quartz. Au Medghacen, trois nuits de recherche n'ont rien donné. Mais nous avons persévéré et installé une grande bâche sombre pour camoufler notre petit chantier et

— L'humanité n'a pas idée de ce qu'elle doit à ces gens. On parle du battement d'ailes d'un papillon et de ses effets à l'autre bout de la terre. On ne dit jamais lorsque l'on prend un avion ou un médicament, qu'un battement de neurones il y a des siècles a pu rendre cela possible!

Puis, déroulant son invraisemblable histoire, il raconta comment son équipe avait exploré toutes les pistes possibles, jusqu'aux moins acceptables, en se basant sur les connaissances de l'époque et en liant les deux monuments. Les rapports entre le Medghacen et le Mausolée royal de Maurétanie avaient été envisagés de manière radicalement nouvelle. Comme Noureddine l'avait pressenti, des concordances entre les formes géométriques principales des deux monuments avaient été établies pour rechercher, sur chacun d'entre eux, un Point de Convergence symbolique déterminé à partir de l'orthocentre du triangle formé par les portes, du centre du cercle et de leurs éventuels décalages. Sur le papier, tout cela était facile. Mais si ce Point indiquait un emplacement secret, il aurait fallu démonter les deux monuments pierre par pierre pour y accéder, et s'il se trouvait sous leurs bases, creuser dans l'espoir d'une découverte. En 1968, on avait bien déplacé les temples d'Abou Simbel sur le Nil. Mais c'était grâce à une mobilisation mondiale exceptionnelle, impossible à envisager aujourd'hui. De plus, si l'on savait ce que l'on sauvait en Égypte – ces impressionnantes statues de gardiens d'univers –, pour les deux monuments



La vie et le cosmos pouvaient entrer, pensait-on alors, dans cette formule quasi-magique préfigurant la connaissance actuelle des quatre dimensions! Puis vint le mathématicien perse, Ghiyath-e-Din el Kashi, né au XIV^e siècle, auteur du théorème qui porte enfin son nom après avoir longtemps été appelé Théorème de Pythagore généralisé ou Loi des cosinus. Une révolution dans la trigonométrie. Pour l'élaborer, ce génial savant, mort à Samarkand en 1429, se serait appuyé sur le *Livre des tables sabéennes* d'Al Battani, né au milieu du IX^e siècle en Anatolie (tiens, s'était dit Nouredine, pensant à son rêve répétitif). Al Battani avait intégré le sinus dans les calculs ainsi que la tangente, ou ombre, et les cotangentes. Il avait aussi calculé l'apogée du Soleil, mesuré les équinoxes ainsi que l'inclinaison de l'axe terrestre. Tout cela « entre autres », car le grand Copernic lui-même admettait qu'il s'était inspiré de celui qu'il prénommait Machometi, soit Mohammed en latin. À l'évidence, le Professeur vénérait cette bande de génies féconds.

Puis, Nouredine s'était tu. Il s'était senti épuisé. Il avait parlé vite, livrant en vrac ses élucubrations au Professeur, se rendant compte que c'était de la prétention de sa part, surtout pour leur premier entretien. Le Professeur l'avait regardé longtemps avant de faire quelque chose qui semblait complètement étranger à cet homme toujours pensif et sévère. Il avait éclaté de rire! Puis, quand ses gloussements avaient cessé, voyant Nouredine rougir, il s'était excusé. C'est alors qu'il avait tout dit à Nouredine.

Cette nuit-là, ils avaient vidé en même temps le casier du distributeur de boissons et le grand secret du Centre. Le récit du Professeur était bien plus ahurissant que les intuitions de Nouredine. Plus fort, plus profond, intolérable à la raison! Nouredine n'avait fait qu'effleurer la vérité. Mais il l'avait effleurée quand même et c'était méritoire pour un profane. Le Professeur s'était d'abord assuré que Nouredine connaissait Pythagore, le grand mathématicien et philosophe grec. Son enseignement – car il n'avait jamais écrit –, avait conduit à un axiome surprenant: *Les choses sont des nombres* ou, en tout cas, sont structurées ou influencées par eux. De là, venait la correspondance entre objet et chiffre, géométrie et arithmétique. Le un est le point, le deux est la ligne, le trois est la surface, le quatre est le volume. Ainsi naissait la fameuse Tétraktys, soit l'image du Tout résultant de l'addition des quatre premiers nombres et de ce qu'ils représentent: $1+2+3+4 = 10$.

Noureddine s'était arrêté de parler, intrigué par le Professeur qui, pipe en bouche, agitait son index du bas vers le haut.

— Ah oui, les hauteurs ! J'y arrivais. Le Medghacen fait actuellement 18,5 mètres de hauteur et le Mausolée 32,4 mètres. Presque le double... En fait, je suis sûr que c'était le double à l'origine car les sommets des deux monuments ont été bien détériorés, leurs pierres ont dégringolé... Il est clair que ceux du Mausolée ont voulu faire plus haut que leurs ancêtres ou, disons, leurs prédécesseurs. Mais tant de choses nous invitent à penser que c'était leurs ancêtres... On a 22 gradins ici et 33 au Mausolée. Est-ce une coïncidence mais on a deux nombres doubles, deux multiples de onze, ce chiffre qui a fasciné les mathématiciens, les poètes et tant d'autres, charlatans compris. Le dépassement de la dizaine puisque l'homme commence ainsi à compter au-delà de ses doigts et donc à chiffrer le monde au-delà de son corps. L'idée de la dualité des êtres et des choses, puisque tout simplement $1 + 1 = 2$. On ne peut être deux si on n'est pas d'abord un. Le un est la condition sine qua non du deux, du trois, etc. Donc, le groupe ne peut exister sans les individualités, le pluriel sans le singulier. D'une certaine manière, nos aïeux ont peut-être voulu nous transmettre un message, nous dire qu'une nation doit garder les mêmes bases, d'où les circonférences identiques, mais toujours s'élever vers le haut, se dépasser en préservant son unité, c'est-à-dire sa diversité. Enfin, voilà...

monuments, l'usure du temps, la nature des pierres et des sols, les types d'érosion locale, la sismicité régionale, les affaissements... Et malgré tout, la différence est négligeable. Je suis persuadé qu'ils avaient tous deux 60 mètres de diamètre à l'origine. En tout cas, que leurs constructeurs visaient cette longueur...

Le Professeur s'était mis à tousser. Devant l'inquiétude de Noureddine qui s'était levé, il avait fini par lui dire :

— Non, ça va. J'ai dû trop tirer sur cette maudite pipe. Continuez...

— Le nombre soixante est quand même très présent. Pour les deux monuments : soixante mètres de diamètre et soixante pilastres !

— Mais ces pilastres sont différents.

— Oui, mais par leurs styles seulement. Ceux du Medghacen s'inspirent des colonnes doriques et ceux de Tipasa des colonnes ioniques. Des éléments venus de Grèce et l'on connaît le lien des dynasties numides avec cette culture ! Cela avait donc commencé bien avant Massinissa. Le dorique est plus ancien que le ionique, ce qui confirme encore que le Medghacen a précédé le Mausolée. Et j'ai trouvé ici un livre sur les nomarques de Béni Hassan, près du Nil. Comme vous le savez, ils gouvernaient les nomes, les provinces des pharaons à l'époque du Moyen-Empire. Sur leurs tombes, on trouve des pilastres qui préfigurent l'ordre dorique. Cette décoration serait partie d'Égypte vers la Grèce et de la Grèce vers la Numidie...

avait été affecté, se consacrait aux études. Elle s'intéressait surtout aux monuments funéraires analogues au Medghacen, le Mausolée royal de Maurétanie, les djeddars de Frenda, près de Tiaret, mais aussi les pyramides égyptiennes, celles de Méroé au Soudan ou encore les temples précolombiens en Amérique latine. Des recherches plus étonnantes y étaient menées. Par exemple, un collègue travaillait uniquement sur les statues de l'île de Pâques. Sans qu'on en sache toujours les raisons, ces dossiers avaient un lien direct ou indirect avec le Medghacen tout proche bien que ce soir-là le Professeur avait éprouvé le besoin de préciser que le Centre ne se situait pas sous le monument :

— Ce serait folie ! Le Medghacen est si endommagé ! Mais laissons...

Voulait-il tromper Noureddine qui se souvenait encore de son passage sous les planches le jour du Marathon ? Si le Centre n'était pas sous le monument, il ne devait pas en être bien éloigné.

Dès qu'ils s'étaient installés, le Professeur, encore d'un mouvement de tête, avait demandé à Noureddine de poursuivre :

— Pour moi, et excusez ma prétention Professeur, nous pouvons tirer bien plus de la comparaison entre les deux monuments. Je ne sais pas très bien comment mais je le sens. Il y a un lien secret qui est là, qui nous murmure des pistes. Les diamètres sont quasiment les mêmes, 59 mètres pour le Medghacen et 60,9 pour le Mausolée. Mais, ici et là, il faut tenir compte de plusieurs facteurs : l'ancienneté des

L'un des principaux consistait à lutter contre un mystérieux plan de destruction du patrimoine historique. Au début, Nouredine avait pensé à une lubie conspirationniste mais il avait fini par changer d'avis. L'entreprise criminelle, entamée durant la colonisation, se poursuivait grâce à un immense réseau de complicités, y compris au sein de l'État. Effaré, Nouredine avait trouvé dans le fichier des membres de cette cabale, des personnages qu'il admirait auparavant. Leur duplicité n'avait pas de limite. Hélas soutenu par le temps et l'ignorance, le plan, dénommé Nihil, soit le néant en latin, avait pris une avance considérable. Il s'inscrivait même dans une démarche mondiale. Une mappemonde montrait qu'à de rares exceptions, l'implantation des zones récentes de conflit sur la planète se superposait aux territoires des anciennes civilisations. L'invasion de l'Irak, par exemple, motivée par des questions géostratégiques – pétrole en tête –, avait servi aussi à détruire ou voler les trésors de la Mésopotamie. On en était maintenant à se réjouir que le Code d'Hammourabi soit à l'abri au Louvre. À Tombouctou, Palmyre, Kaboul, Aden ou Alep – l'une des premières villes au monde – des hordes d'illuminés osant se prévaloir de Dieu, avaient vomi le feu de l'anéantissement sur des siècles de raffinement. En Europe même, la crise financière avait frappé plus durement des pays de haute civilisation : la Grèce, l'Italie, l'Espagne. Toute une section du Centre était vouée à la lutte contre le Plan Nihil. L'autre section, celle où Nouredine

Le professeur Babreg fit volte-face et, tout en bourrant nerveusement sa pipe, lança derrière son épaule :

— Prenez vos cigarettes et suivez-moi.

Ce soir-là, dans la Rotonde où le Professeur l'avait autorisé à dépasser son quota de tabac, ne se privant pas lui-même de bourrer plusieurs fois sa pipe, Nouredine avait pensé qu'il ne sortirait jamais plus du Centre. Ils étaient allés très loin. Il en savait trop. La panique s'était répandue en lui tel un venin de vipère dans ses veines. Il avait continué à discuter posément avec Babreg tout en évoquant intérieurement de terrifiantes issues. Il avait même pensé dans son délire parallèle à ce journaliste saoudien, dépecé comme une bête d'abattoir à Istanbul. Un des suspects filmés à l'aéroport ressemblait même à Mettou, l'âme damnée du Professeur. Et même le visage du Professeur, ce brave major Higgins qui lui parlait gentiment, lui suggérait maintenant ces sages physionomies de tueurs en série. Ses mains étaient devenues moites. Une coulée de sueur avait dévalé sa colonne vertébrale.

En rejoignant le Professeur dans la Rotonde, Nouredine avait rapidement récapitulé tout ce qu'il savait du Centre. Il voulait l'épater, lui montrer qu'il était digne de confiance. Il ne devait pas commettre d'impair.

Personne ici n'avait pu ou voulu lui dire comment le Centre avait été créé. Cependant, on l'avait laissé découvrir progressivement ses buts.

rence d'un cercle en 360° , à partir de six angles de triangles de 60° chacun. Donc les soixante colonnes du Tombeau de la... je veux dire du Mausolée royal de Maurétanie, et celles du Medghacen ne peuvent être une pure coïncidence, ni une simple fantaisie décorative. Ceux qui les ont conçus connaissaient les rapports entre cercle et triangle et leur attribuaient des significations symboliques, même si on doit se méfier des fantasmes de la numérologie. Les trois portes équidistantes du Medghacen forment un triangle équilatéral parfait circonscrit dans un cercle...

— Mais le Mausolée royal a quatre portes, répliqua le Professeur, les yeux fixés au sol.

— Excusez-ma prétention, mais je me suis dit... Bon, le Medghacen est plus ancien que le Mausolée. Les dates sont incertaines mais vos confrères semblent d'accord là-dessus. Les constructeurs du Mausolée près de Tipasa ont certainement profité de l'expérience du Medghacen. Pour moi, ils ont voulu être plus subtils que leurs prédécesseurs, mieux cacher leurs secrets. Les quatre portes du Mausolée, orientées vers les points cardinaux, forment un carré. Mais, si je m'inspire de Kandinsky avec votre permission, cela veut dire qu'on retrouve alors la troisième des formes géométriques élémentaires, le carré. Et dans un carré, un triangle équilatéral peut s'inscrire parfaitement, et même quatre selon le sens que l'on prend. De toutes les manières, ici comme là-bas, les portes sont des leurres sculptés. Alors prenons-les en tant que faux, donc des symboles possibles...

de lui livrer en vrac ses digressions alors qu'ils échangeaient pour la première fois? Babreg, avait levé doucement sa main pour l'interrompre :

— Intéressant, mais quel rapport avec nos deux monuments?

— Les deux ont soixante colonnes sculptées sur leur base circulaire. J'ai pensé que cela pouvait signifier quelque chose et même que cela devait... Vous savez, j'ai toujours aimé les mathématiques, leur aspect, disons artistique, magique même si vous permettez. Un hobby, quoi. Je sais que soixante est à la base des mathématiques mésopotamiennes au moins quatre mille ans avant notre ère. Leur numération s'appuyait sur soixante. Un nombre qui permet d'effectuer des calculs très précis. Les spécialistes disent que c'est un nombre hautement composé, unitairement parfait et refactorisable, soit un entier divisible par le nombre total de ses diviseurs. Excusez-moi, Professeur, je n'ai rien à vous apprendre. C'est seulement pour vous dire que je sais de quoi je parle... Bon, il paraît que la base cent que nous utilisons a été adoptée en référence aux dix doigts de l'homme. Plusieurs mathématiciens aujourd'hui pensent que Babylone, avec la base soixante, était en avance sur nous. D'ailleurs, pour une chose aussi importante que le temps, l'humanité a conservé le système, heu... sexa...

— Sexagésimal, reprit le Professeur qui avait commencé à mâchonner sa pipe.

— Oui, nous avons gardé soixante pour les heures, les minutes... Et aussi pour la circonfé-

qu'il avait aussi lu son étude magistrale sur la mesure du temps dans l'Antiquité ainsi que celle sur les représentations du dieu pharaonique Bès au Maghreb. Noureddine avait découvert la rigueur de l'archéologue et sa capacité à interpréter les vestiges à partir d'une vaste érudition. En guise de réponse, il chercha une feuille et la lui montra. Elle représentait un triangle équilatéral jaune circonscrit dans un cercle bleu, lui-même placé dans un carré rouge.

— Mais encore ? lança la réincarnation du major Higgins.

— L'archéologie n'est pas ma spécialité mais dans le design, nous étudions l'histoire des formes, leur symbolique...

D'un signe de tête, le Professeur Babreg l'invita à poursuivre. Noureddine lui parla du peintre Kandinsky qui avait établi au Bauhaus un lien entre les trois formes élémentaires et les trois couleurs primaires avant de le conceptualiser à partir du dessin qu'il venait de montrer. De là, Noureddine aborda la symbolique du triangle et du cercle présents dans presque toutes les civilisations. Le cercle : l'univers, le point ou la sphère, la molécule ou l'astre, le monde connu et inconnu, l'absolu, l'œil, la roue... Le triangle : flèche, direction, mouvement, appel, fécondité, spiritualité, élévation... Quant au carré, il incarnait l'ordre de l'univers, le principe créateur, sa stabilité, son unité et son équilibre.

Pendant que Noureddine parlait, le Professeur, pourtant connu pour son impassibilité, montrait des signes d'impatience. Peut-être avait-il eu tort

portait en elle un univers assez puissant pour s'épanouir n'importe où et c'était peut-être là le sens de la lointaine Anatolie dans ses rêves.

Un soir, alors que tous ses compagnons dormaient, Noureddine travaillait encore, de la musique dans ses écouteurs pour neutraliser les ronflements humains mêlés au ronronnement des machines. Absorbé par l'écran de son ordinateur, il ne s'était pas aperçu de la présence du Professeur. Celui-ci, soumis aux mêmes restrictions tabagiques que tout le monde, venait parfois fumer sa pipe dans la Rotonde. Noureddine avait failli sursauter en apercevant la silhouette dressée près de son bureau.

— Vous ne vous reposez pas? avait demandé le Professeur en lui faisant signe de ne pas se lever.

— Je termine les images de synthèse animées du Tombeau de la Chrétienne...

— Ah, bien... Savez-vous pourquoi on vous a demandé ce travail?

— Bien sûr, pour les comparaisons avec le Medghacen.

— Et vous pensez qu'ils sont comparables?

— À l'évidence, on dirait de faux jumeaux. Mais j'ai l'impression qu'il y a autre chose...

— Tiens donc? répondit le Professeur en fronçant les sourcils. Qu'est-ce qui vous autorise à dire ça? Je sais que vous lisez beaucoup en ce moment, mais échafauder des hypothèses...

Noureddine découvrait que le directeur du Centre le surveillait de près. Il devait donc savoir

Pendant sa période d'adaptation, Nouredine craignait d'être tombé sur une secte d'illuminés ou une officine suspecte. Il n'avait cessé alors de penser au roman de Graham Greene, *Le Ministère de la Peur*, qui commence – un peu comme le Marathon – par une innocente kermesse caritative durant le blitz de Londres.

Guide précieux de ses débuts au Centre, Myriam s'était montrée plutôt froide. Il mit du temps à comprendre qu'elle agissait ainsi pour mieux le protéger. Elle voulait qu'il soit d'abord accepté par les autres. Mais, même après, quand elle avait commencé à venir le voir dans son box ou le rejoindre dans la Rotonde, elle le tenait à distance. Toute son attirance se logeait dans les yeux, entraînés comme chez toutes les femmes du pays à des miracles d'éloquence. Parfois, elle lui touchait rapidement l'avant-bras, fulgurance électrique qui suspendait la respiration de Nouredine. Il avait tenté une fois d'en faire autant, elle avait retiré vivement son bras avec un regard de reproche mais aussi une lueur complice au fond de l'iris.

Un jour, il lui avait révélé le sobriquet qu'il avait attribué au Professeur. Elle n'avait jamais vu la série *Magnum* et se promit de vérifier la ressemblance. Mais Nouredine ne l'écoutait plus car sa main le brûlait après qu'elle l'eût serrée en riant, mêlant presque ses doigts aux siens.

Le Centre, semblable à la cabine d'un sous-marin immobile, décuplait les perceptions et les sentiments. Mais Nouredine savait que Myriam

travaillé avec des personnes aussi passionnées et brillantes, capables de dissocier une idée de celui qui l'émettait, de se remettre en question si l'autre avait raison, d'accepter avec joie la controverse. Hélas, se disait-il souvent, ce formidable potentiel d'intelligence ne pouvait que se trouver là quand, au dessus, le savoir était bafoué par le pouvoir et l'avoir.

Le harcèlement de Mettou avait accentué la sympathie du groupe à son égard. À plusieurs reprises, Noureddine s'était retenu de lui donner un coup de tête. Heureusement, les trois mots magiques de Myriam, logés au fond de lui tel un mantra, avaient calmé ses pulsions. Il avait découvert qu'il n'était pas le seul à se demander comment un être aussi médiocre et odieux pouvait œuvrer aux côtés du Professeur Babreg. Il se chuchotait diverses histoires, la plus répandue étant qu'on avait imposé Mettou. Mais qui était-ce « *on* » ? Il avait fallu des moyens énormes pour édifier le Centre, creuser ses galeries et salles souterraines, l'équiper et l'alimenter et tout cela dans le secret absolu. Dès que ce sujet était abordé, toujours en tête-à-tête et à voix basse, se profilait le Distingué. Très rarement présent, il passait pour être le financier du Centre et son représentant secret à l'extérieur. Dans cette version, Myriam était son agent de liaison. Et Noureddine se demandait alors si les fameuses lectures de la jeune femme sur la véranda du Musée d'Alger n'étaient pas en réalité une couverture aussi mystérieuse que celle du livre qu'elle lisait lors de leur première rencontre et dont elle affirmait avoir oublié le titre, ce qui avait renforcé son hypothèse.

lac que sa conscience onirique situait bizarrement en Anatolie. Myriam et lui portaient des couronnes de feuilles et de fleurs sauvages. Enivrés de senteurs fraîches et puissantes – entre lauriers, thym, résines et lavandes – ils honoraient la nature et la vie.

Parmi la petite communauté du Centre, seul Nouredine était prisonnier. Mais Myriam lui avait interdit de prononcer ce mot. Elle lui répétait souvent ces trois termes magiques, « *Faites-moi confiance* ». Il comprit plus tard qu'elle s'était portée garante de lui. Sans organigramme, le Centre fonctionnait dans la polyvalence, y compris pour les corvées domestiques. Quelques signes cependant indiquaient une hiérarchie. Myriam, par exemple, était l'une des rares personnes à disposer d'un espace personnel. Elle semblait exercer des missions diverses : conseillère du Professeur, chargée des relations extérieures, attachée de recherche parfois... Elle ne faisait pas partie de l'espèce de triumvirat constitué du Professeur, de Mettou et du Distingué, dont personne ne semblait connaître le nom, mais sa position avait été déterminante dans le sort de Nouredine.

Pour ne pas perdre la raison et admettre déjà qu'il se trouvait sous terre, Nouredine s'était furieusement investi dans le travail. Ses efforts avaient facilité son intégration et il se sentait de moins en moins surveillé. Sans s'en rendre compte, il avait pris goût aux recherches incroyables menées par le Centre. Il n'avait pas tardé à reconnaître que, de sa vie – au pays comme à l'étranger –, il n'avait jamais

— Taisez-vous, Mettou! lui avait répliqué le Distingué avec une étonnante autorité.

— Oui, mais là, il a presque... avait insisté le premier, sa phrase ravalée quand le Professeur, se tournant à peine vers lui, l'avait paralysé d'un regard où perçait un profond mépris.

Puis, après un silence qui avait paru très long à Noureddine comprenant que son sort se jouait dans ces brefs échanges, le Professeur avait déclaré :

— Bon, occupez-vous de lui (il avait parlé à quelqu'un derrière le brancard et Noureddine, en tendant son cou, avait aperçu l'infirmière). Quant à nous, réunion immédiate. Myriam, vous assistez...

C'est ainsi que Noureddine avait appris le prénom de son Inconnue. Le pois chiche dans sa tête avait pris du volume lorsqu'il avait vu son portefeuille dans la main du Nerveux. Puis il s'était un peu dégonflé lorsque Myriam, derrière les trois hommes, s'était retournée, avec un sourire plus infime que celui de la Joconde.

Noureddine n'avait pas eu le choix. Il devait rester au Centre où le travail ne manquait pas. « *Jusqu'à nouvel ordre* », avait dit Mettou avec un air sadique. Mais, à leur premier tête-à-tête, Myriam avait affirmé : « *Quand vous gagnerez leur confiance* ». Quand? Comment? Il crut devenir fou. Elle avait baissé la tête pour lui adresser par dessous un regard fixe et profond, avant de lui dire en articulant chaque syllabe, le ton grave et bas : « *Faites-moi confiance* ». Depuis, il faisait un rêve récurrent, se voyant dans une forêt au bord d'un

l'orientation et l'intensité suivent celles à la surface de la terre, ce qui donne la vague sensation d'être dehors et permet de simuler le rythme des jours. Une vasque où clapotent les gouttes d'un petit jet d'eau et des plantes agrémentent l'endroit longé par une longue banquette circulaire. C'est là que Noureddine et Myriam se rencontrent la plupart du temps.

Le soir du Marathon, après sa rencontre avec le sloughi, il s'était réveillé dans un long couloir blanc, allongé sur un brancard roulant, les membres sanglés. Le clignotement de ses yeux lui avait livré l'image stroboscopique de *l'Inconnue du Hamma*, aussi belle que lors de leur rencontre à Alger mais visiblement tendue. Noureddine avait pensé qu'il était hospitalisé. Pourtant aucun signal de douleur n'émanait de son corps. Dans l'étrange sérénité qui l'habitait, seule une infime zone d'angoisse – quelque chose de l'ordre d'un pois chiche – flottait dans son cortex. La présence de la jeune femme suffisait à le rassurer même si elle n'était pas seule. Près d'elle, sévères et silencieux, se tenaient le Professeur Babreg et deux autres personnes. Que s'était-il passé? Où étaient-ils? L'un des présents, un homme mince au visage distingué qu'il croyait avoir aperçu parmi les coureurs puis lors des allocutions de clôture du Marathon, le fixait avec intensité. L'autre, un peu plus âgé, semblait nerveux et agressif, son regard allant du précédent au Professeur :

— Bon, qu'allons-nous faire de lui? avait-il fini par demander brusquement.

qu'il suffisait de ne plus y penser, il n'est pas parvenu à ce niveau d'abstraction sensorielle. Comment peut-on oublier un bruit que l'on entend ? Il se demande parfois s'il ne lui manque pas quelque faculté commune aux humains, se souvenant d'un match de football que, vers ses douze ans, son oncle l'avait emmené voir. Ils étaient arrivés en retard ; les seules places disponibles en bas des gradins faisaient face à un haut grillage destiné à isoler le terrain des supporters. Noureddine tentait de suivre le match mais, à chaque fois, son regard s'accrochait aux losanges métalliques de la haie. Il finit par en parler à son oncle qui, les yeux rivés sur l'action en cours, se contenta de hausser les épaules en riant. Mais, au bout de quelques minutes, celui-ci se leva en colère et lui lança : « *Tu m'emmerdes ! Maintenant, je ne vois plus que ce foutu grillage !* ». Ils avaient fini le match debout sur la courbe supérieure du stade.

À certains moments pourtant, Noureddine oublie les ronronnements du Centre. Lorsqu'il voit Myriam ou, mieux, quand il lui parle. Moments précieux et exaltants où même sa captivité s'estompe dans son esprit. Moments rares aussi et sans intimité puisque dans la partie du Centre où il est cantonné, les espaces ne sont pas cloisonnés, un peu comme dans ces vastes bureaux dits paysagers. Chacun dispose d'un box avec un plan de travail devant et un lit au fond caché par une armoire à double face, dossiers au recto, affaires personnelles au verso. Au milieu, la Rotonde, sorte de grand aquarium circulaire éclairé par une lumière assez naturelle dont

nette compagnie n'est à négliger. Et, dans le silence sidéral des lieux, il avait parlé au chien, à moins qu'il n'ait fortement pensé le faire :

— Ah, mon pauvre ami, tu as l'air aussi triste que moi !

Alors, le sloughi s'était dirigé vers le monument d'un trot léger qui soulignait sa charnière osseuse. Et Noureddine, poussé par un fol instinct et se rappelant tant de scènes semblables, dans la littérature ou au cinéma, l'avait suivi. À travers les blocs dévalés, ils avaient fait le tour du monument jusqu'à son côté opposé, le plus fragile, étayé par une série de madriers au milieu desquels se tenait une grande plaque de bois inclinée. Le chien s'était glissé dessous puis avait ressorti sa tête semblant inviter l'homme à le suivre. Et si ? Oui, s'était demandé Noureddine, et si elle était entrée dans le monument et s'était retrouvée coincée ? Ou pire encore puisque les accès étaient interdits en raison des dangers d'écroulement ? Tel qu'il avait construit la personnalité de l'Inconnue dans ses divagations, il la croyait capable d'une telle témérité. Bien le genre sous ses dehors sages, s'était-il dit en s'asseyant sur ses talons et en se penchant vers le sloughi. L'endroit était sombre d'autant que le soleil commençait à décliner. Puis tout était devenu obscur.

Noureddine n'a jamais pu s'habituer au ronronnement des groupes électrogènes et des blocs d'aération du Centre. Ce bruit sourd et lancinant est même devenu plus oppressant que la conscience de se trouver sous terre. On a eu beau lui répéter

Il avait fait le tour du monument, était monté sur un gros bloc de pierre offrant une vue générale. Après les discours des organisateurs et des autorités locales, une troupe folklorique avait parcouru les abords du Medghacen suivie par le public et même certains athlètes qui parvenaient à esquisser quelques pas de danse ankylosés au son de la zorna et des tambours. Pas une personne que Noureddine n'ait dévisagée. Il avait même surveillé les rares mouvements de véhicules à ce moment-là. Son désarroi avait augmenté en voyant les derniers présents s'en aller tandis que l'on finissait de démonter les tentes. Lorsque les passagers du minibus rouge s'étaient regroupés pour partir, il avait interpellé un couple à la traîne.

— Vous ne connaissez pas son nom ? avait demandé la fille avec méfiance.

— Elle est sûrement arrivée en même temps que nous et vous avez cru qu'elle était avec nous... avait affirmé son compagnon en riant.

Noureddine avait fini par se retrouver seul près du monument, lui adressant un regard fou d'interrogation.

Un sloughi blanc et décharné s'était approché de lui. Sa langue longue et rêche pendait en tremblant ; il regardait l'homme avec attention. Il devait avoir été une belle bête comme tous ceux de sa race de chiens de chasse qui accompagnaient les cavaliers de jadis. Noureddine avait comparé la déchéance du sloughi à celle du Medghacen : un modeste être de chair et une grandiose construction aux épopées dérobées par le temps et l'oubli. Dans la solitude,

en tenant de manière comique le bas de sa robe des Aurès.

Combien de temps passé au Centre depuis ce fameux marathon où il avait retrouvé et perdu à nouveau *l'Inconnue du Hamma*? Les hypothèses assomment son cerveau, à lui faire mal aux tempes, car elles s'étalent de six mois à quelques années. L'incroyable sentiment d'avoir vécu ici toute une vie domine ses pensées. Il sait pour l'avoir tant de fois éprouvé, aux limites de l'invraisemblance, qu'on peut vivre des montagnes d'évènements en une très courte période. Ou à l'inverse, rester longtemps sans rien ressentir, comme un moteur en bon état de marche privé de courroie de transmission. La densité de l'existence serait-elle une dimension subalterne de la relativité du temps? À chaque fois qu'il pense à ces choses, lui revient *Paradoxe perdu*, le roman fou de Frédéric Brown. Pour le moment, c'est lui qui se sent perdu et le paradoxe déjà est de savoir parfaitement où il se trouve en ignorant où cet endroit se trouve.

Désespéré, il se demande comment tout cela s'est produit. L'avait-on drogué, hypnotisé? Serait-il prisonnier d'un rêve hermétique? Il a souvent l'impression d'un réveil permanent où les fantasmes de la nuit s'enfuient de la mémoire comme un filet de sable fin entre des doigts pourtant serrés.

Il l'avait cherchée partout. Elle n'était pas dans la foule rassemblée autour des coureurs et coureuses épuisés, certains entourés de secouristes, ni à la remise des trophées. Pas non plus dans les tentes.

avec plus de génie que les intrigants les plus retors, la semaine suivante lui avait réservé de nombreuses surprises. Rien de dramatique mais un enchaînement de corvées et de circonstances triviales qui l'avaient empêché de retourner au Musée. Il n'avait pu se libérer que la semaine d'après. Sur la véranda vide, il s'était encore infligé le médiocre café du distributeur mais elle n'était pas venue. Il était repassé une autre fois. En vain.

Et voilà qu'il la retrouve ici, encore en un lieu chargé d'histoire. Existe-t-il un peuple caché dans le peuple visible, des personnes si ulcérées par la vulgarité du présent qu'elles s'arrangent pour ne jamais sortir des espaces conçus dans le passé? Noureddine adore échafauder de tels contes. Sous la tente, la conférence s'est achevée brusquement. Dès l'annonce par haut-parleurs de l'arrivée imminente des premiers marathoniens, la tente s'est vidée, laissant seul le Professeur, avec Noureddine qui croit bon de lui adresser un signe de remerciement empreint de désolation. L'homme, le visage fermé, sort sa pipe et répond par un battement de cils poli.

La foule s'est agglutinée autour de la ligne d'arrivée encore barrée par un ruban. Les organisateurs, au comble de l'excitation, s'agitent dans tous les sens. Un commentateur s'égosille dans son micro, annonçant les performances de temps au kilomètre 40 et l'ordre probable des arrivées. Noureddine s'assure que le bus rouge est toujours garé au loin. Il va enfin la revoir, là où tout le monde afflue, y compris l'hôtesse de tout à l'heure qui court

fois, de maudire les imbéciles qui avaient décidé de gâcher cette vue par l'usine de dessalement d'eau de mer quand la place ne manquait pas ailleurs. Puis il avait souhaité à l'inconnue une belle fin de journée avant d'ajouter comme s'il avait oublié quelque chose :

— Quel bel endroit !

— Tout à fait d'accord avec vous. Je l'adore vraiment...

— Un petit miracle dans la grande folie d'Alger.

— On peut le dire, oui ! Quand un livre me plaît, je viens le lire ici...

En d'autres circonstances, poussé par sa dévorante curiosité littéraire et sachant qu'une lecture partagée demeurerait la meilleure façon de lier connaissance, il aurait demandé l'auteur et le titre. Mais il n'en fit rien, bouleversé par la simplicité chaleureuse avec laquelle elle lui avait répondu.

— Eh bien, à bientôt peut-être ? avait-il bredouillé.

— Oui, au plaisir !

Avait-elle rosi en parlant et lui rougi en l'entendant ? Il avait pensé à lui remettre sa carte de visite. Mais Noureddine voulait croire qu'elle n'avait pas précisé pour rien les raisons de ses venues en ce lieu. Et s'il n'avait pu savoir quel livre elle lisait, il avait vu qu'elle venait de le commencer, son index planté vers les premières pages pendant qu'ils se parlaient. Il avait écrit le poème sur le volant de sa voiture. C'était une veille de week-end. Par un de ces complots que l'existence est capable de fomenter

qui remonterait au II^e ou III^e siècle avant J.-C. Elle avait retiré son thé et, après un petit signe de tête poli, s'était installée sur la véranda du Musée. Jadis, les gens de la région auraient nommé le monument Madr-Hazem, toponymie restée indéchiffrée. Il avait extrait son gobelet de café et pris place à une distance raisonnable de la femme. Les pièces retrouvées par des officiers français lors des fouilles de 1854 auraient mystérieusement disparu dans un musée parisien. Avant de s'asseoir, il l'avait regardée et elle avait ébauché un sourire. D'innombrables hypothèses, hasardeuses et mêmes farfelues, avaient traversé les siècles, attribuant le site funéraire au roi Massinissa, à son rival, Syphax, et même à un empereur romain ! Elle avait tiré un livre de son sac mais la myopie de Nouredine l'empêchait de déchiffrer sa couverture. Plusieurs archéologues considéraient le Medghacen comme le plus important monument amazigh du Maghreb. Il avait fumé en essayant de siroter le café médiocre du distributeur et en la contemplant de côté. Le Medghacen était hélas inscrit sur la liste des cent monuments les plus menacés au monde. Elle l'avait gratifié d'un sourire complice quand elle l'avait vu discuter avec les enfants d'une école en visite au Musée. Des fouilles récentes ont dégagé une galerie de sept mètres où gisaient quelques objets en cours d'analyse. Ils étaient seuls sur la véranda. Il devait partir. Il s'était levé avec un ultime regard pour la perspective magnifique de l'allée centrale du Jardin d'Essais qui se jetait dans la baie sans oublier, comme à chaque

ensuite d'un drone, à cinquante mètres de hauteur : un cercle parfait dans lequel s'inscrivent d'autres, régulièrement concentriques, les gradins dont l'étagement commence au-dessus d'un socle cylindrique dans une forme inspirée des *bazinas* funéraires berbères. Sur la façade de cette base, trois fausses portes sculptées entourées de soixante colonnes d'inspiration hellénique, toutes aussi factices. Les pierres de taille sont reliées par des crampons en bois de cèdre enrobés de plomb. Pour El Bekri, au sixième siècle, comme pour Ibn Khaldoun, huit siècles plus tard, le Medghacen aurait été la sépulture d'un certain Madghis, ancêtre supposé des rois numides, patriarche important des Amazighs. Mais il ne s'agirait que de légendes et, de plus, l'édifice mégalithique aurait subi un ou plusieurs pillages le rendant presque muet.

Attentif, Noureddine est pourtant partagé entre son intérêt pour le sujet et son désir de retrouver la jeune femme. Il ne pensait pas que la séance serait aussi longue ni aussi intéressante. À plusieurs reprises, le Professeur l'a pris à témoin du regard, avec l'affection réservée d'un instituteur pour son meilleur élève. Sortir de la tente pourrait vexer le maître qui s'efforce de captiver son auditoire disparate et un peu dissipé.

Entre la découverte du monument et le souvenir de son unique rencontre avec *L'Inconnue du Hamma*, tout se mélange dans la tête de Noureddine. On ne savait pas grand-chose de la destination du Medghacen ni de sa construction

Noureddine balaie la foule du regard, un peu inquiet d'avoir perdu de vue l'Inconnue. Il commande un café et se rend avec à la tente Informations. Une hôtesse en robe traditionnelle lui remet un dépliant et lui propose de rejoindre la tente Découverte où va débiter la *dernière séance*. Sans demander de précisions – car les deux mots l'ont fasciné –, il se retrouve dans l'espace obscurci par des rideaux noirs où une douzaine de personnes occupe des bancs en face d'un écran pour l'instant vide. Le conférencier, un sexagénaire alerte, arrive en s'excusant. En le voyant, Noureddine sourit. Eh oui, *Magnum*, la série américaine qui avait lancé l'acteur Tom Selleck mais ruiné sa carrière ! Une île hawaïenne, bien sûr mirifique. La maison d'un écrivain absent. Une bande de détectives amateurs. Et, dans la maison, le major Higgins, so british, dont Noureddine croit voir le sosie devant lui. Cheveux courts, front légèrement bombé, regard perçant exprimant une grande intelligence, moustache en barre bien taillée et peignée, lunettes à la monture fine et dorée, tenue de toile beige, le pantalon comme la saharienne, la poche avant gonflée par une pipe qui pointe son bec au dehors. L'homme se présente. Chez son coiffeur où l'on trouve les revues les plus improbables, Noureddine pense avoir lu un article sur cet éminent archéologue, le Professeur Illyés Babreg.

Sans plus tarder, le major actionne la télécommande. Sur l'écran apparaît une photo-satellite de la région et le Medghacen en petit point. On le voit

un visage serein, sage mais sensuel, un brin amusé, qui ne se laisse pas contempler sans exprimer une multitude de profondeurs, peut-être même une densité bouillonnante.

Bouleversé, Noureddine ferme la porte de la voiture et se précipite avant de retenir son élan. Pourquoi se faire remarquer là où les seules personnes appelées à courir ne sont pas encore arrivées? Et puis où pourrait-elle aller dans cette étendue plane et vide? Il finira bien par la croiser et jouer un effet de surprise tout en gardant de la mesure. Surtout ne pas l'effrayer en lui dévoilant l'attirance qu'il éprouve pour elle. Les retrouvailles doivent paraître aussi simples que leur rencontre. Depuis six ou sept mois, il n'a pas cessé de penser à elle, replongé dans des flambées d'adolescence à se moquer de lui-même. Il avance posément sans la lâcher du regard. Elle entre dans l'assistance qui s'agite au pied d'une sorte de pyramide dressée là, superbement isolée au milieu du plateau, impressionnante, moins lourde de son poids énorme de pierres que de celui des siècles et des mystères qui l'entourent encore. Sans compter son nom digne d'un opéra dramatique. Le Medghacen! Trois syllabes qui résonnent telles des notes des *Carmina Burana* dans un contraste inouï entre la légèreté de la première, *med* – évoquant Méditerranée, médina, médian, méditation, médium... – et de la dernière, *cen* – suggérant une scène –, et enfin, au milieu, tel une enclume sonore, le *gha*, guttural, impérieux, rocailleux, tragique, sorti des entrailles de la langue ancestrale avec le souffle d'une rude mélodie.

présente en lui, à l'orée de sa mémoire, capable de fausser sa vision. Le visage, visible aux trois quarts une fraction de seconde, lui a rappelé celle qu'il avait nommée *L'Inconnue du Hamma*. Il se force à penser ainsi car il s'agit d'elle à l'évidence. Mais la coïncidence est trop forte pour l'admettre sans crainte. D'ailleurs, se dit-il, qu'est-ce qu'une coïncidence sinon un hasard qui s'habille de surnaturel? Noureddine a besoin surtout de refréner le galop dans sa poitrine. Depuis son enfance, rien ne l'affecte autant qu'une fausse joie. Il préfère se désespérer lui-même que d'avoir à subir une déconvenue.

Dans son portefeuille git encore le papier aluminium d'un paquet de cigarettes au recto duquel, faute de mieux, il s'était laissé aller à une passade poétique. Il avait relu son texte assez de fois pour s'en souvenir : « *Elle était assise à la véranda du musée/Entre statues figées et mouettes filantes/La baie ce jour-là resplendissait de joie/Alger avait déclenché sa lumière secrète/Un étrange halo semblait l'entourer/L'écho de son monde peut-être tourmenté/Elle était là simplement et la vie avec elle/A vingt mètres environ, je le ressentais* ».

Ils étaient arrivés en même temps devant le distributeur de boissons du Musée national des Beaux-Arts d'Alger. Il avait reculé pour la laisser passer. Elle avait souri et fait descendre un thé. Il en avait profité pour la regarder de côté. Salopette en toile de jeans, tricot de coton à manches longues, baskets. Au-dessus de la tenue presque ouvrière, un visage à la Botticelli, tout à sa place dans un musée,

de sa jeunesse, ont tout changé. Même la façon de marcher. Les jeunes qu'il observe avancent au rythme de leurs appareils brandis à bout de bras. Ils s'arrêtent souvent pour un selfie solitaire ou en compagnie d'autres, se retournent complètement pour avoir le monument en image de fond, prennent alors du retard sur le groupe qui, malgré son allure de tortue éparpillée, a déjà traversé la route et est sur le point de se fondre dans l'assistance présente.

Avant la jonction, Noureddine remarque la jeune femme en tête du groupe, élégante et déterminée, presque pressée. Sirène bipède incarnant une proue vivante de bateau, elle semble ignorer ses compagnons de voyage. Pour Noureddine, la démarche d'une femme est au cœur de sa beauté. Il affirme volontiers que cela est valable autant pour les mannequins que les femmes ordinaires. Mais il corrige sa pensée. Les top-modèles, certes fascinants, sont au fond ce qu'il y a de plus ordinaire quand les autres femmes – oui, c'est mieux de le formuler ainsi – présentent une variété infinie de charmes non formatés, souvent inédits, qui se laissent découvrir plus ou moins facilement où, en tout cas, donnent envie de les découvrir. Toute séduction procède d'une curiosité et d'un étonnement, il en est convaincu. Et la silhouette mouvante là-bas, délicieusement balancée par le rythme de ses pas décidés, encourage son idée. La marcheuse tourne alors sa tête de côté. Non, impossible ! Seule la distance peut autoriser la ressemblance ! Comme il a encore pensé à « *elle* » hier, l'image serait restée

différentes motivations. Et, contrairement à ce que l'on peut penser, il existe aussi des gens qui aiment autant l'histoire que la performance.

Tout ici donne l'impression d'une kermesse en rase campagne baignée par la clarté d'une chaude journée de novembre. Des tentes blanches en arc de cercle portent des enseignes visibles de loin : information, artisanat, boissons, infirmerie... Les organisateurs ont tout prévu. La météo est complice. Soleil radieux. Vent frais agitant drapeaux et guirlandes ainsi que la large banderole de la ligne d'arrivée. Odeurs de café et de beignets mêlées à la belle voix de Houria Aïchi, la diva du chant chaoui, diffusée par haut-parleurs.

Le séjour de Nouredine à Batna tire à sa fin. Plus que quelques retouches pour terminer la décoration d'un nouvel hôtel ; cette journée de détente vient à point nommé. Il suspend sa manœuvre de stationnement, regarde encore le groupe, se revoit des années en arrière, étudiant en design, empli de rêves, sublimant l'art et, en conséquence, ami de toutes les folies. Il devait ressembler à ces jeunes, à part qu'à son époque les smartphones n'existaient pas. Avec les appareils photos, on économisait les prises de vue. Les pellicules et leur développement coûtaient assez cher, on devait aussi compter sur ses yeux et sa mémoire pour emmagasiner les souvenirs. Et ce n'était pas si mal, se dit-il, puisqu'il peut encore revoir en lui, avec une précision appréciable, des scènes lointaines de sa vie. Ces nouveaux engins, « lus » dans les romans de science-fiction

LA TETRAKTYS DES AURÈS

Ameziane Ferhani

à M. et N.

Rutilant dans le paysage vallonné d'ocres et de verts, un minibus rouge immatriculé à Alger vient de déposer une quinzaine de personnes sur le terrain qui fait office de parking. Aussitôt débarqués, les jeunes passagers s'agitent joyeusement pour chasser l'engourdissement du voyage et se dirigent vers le monument. Une excursion d'étudiants, suppose Noureddine qui vient d'arriver aussi. Et probablement de futurs architectes ou artistes au vu de leurs accoutrements où dominent de grands chèches colorés.

Il n'y a jamais de monde ici, sauf une fois l'an, avec le Marathon international. Et c'est aujourd'hui. L'événement attire à la fois des passionnés d'athlétisme et de patrimoine. Comme c'est la seule discipline liée à un événement précis – la course d'un messager sur 42,195 kilomètres pour annoncer à Athènes la victoire sur les Perses en 490 avant J.-C. – la petite foule qui attend les coureurs et coureuses peut mêler harmonieusement ses

fragrances douces et les deux bergers penchés sur moi, inquiets, me souriaient. La cité avait disparu, mon grand-père, mon ancêtre, mes rois et ma reine, tout avait disparu. Me voici donc revenu de si loin, la conscience allégée de ses mois d'impuissance, ce passé qui m'avait fait traverser le temps, en une nuit, et tout ce que j'ai vécu et appris récompensait mes peines et mes échecs.

Le bras me brûlait, je relevais ma chemise : une étrange inscription sur mon avant-bras, comme une marque nouvelle. Je n'étais point effrayé, mais heureux, car je savais désormais qui j'étais. Me voici réhabilitant la fonction des miens, gardien non pas du tombeau, mais de notre mémoire.

À présent, je sais que de tous ces mythes et légendes ayant traversé les siècles, s'inspirant toujours des réalités, l'esprit de Madrès ou Madghis triomphait encore sur les montagnes aurésiennes.

des vrais lieux de sépulture avec des monuments grandioses et trompeurs.

Stupéfié par la découverte de cette cité des rois qui se trouvait à quelques encablures du tombeau, je ne m'étais pas rendu compte que je franchissais les portes du palais. L'intérieur était décoré de dorures, de feuilles de vigne en argent, avec des piliers marbrés qui soutenaient un plafond blanc et un sol ressemblant à un lac gelé aux reflets brillants. Le roi, habillé de pourpre, était assis sur une chaise en bois de cèdre sculptée de rosaces, le dossier ayant la forme d'un triangle, peint en noir et blanc dont le sommet se terminait par une sorte de fourche métallique à trois branches. Il me semblait avoir déjà vu ce signe représentant le bélier sur des tapis berbères et dessiné sur des poteries dans quelques villages. Sur le fronton du mur derrière lui, une inscription «  » était gravée directement dans la pierre. Mes jambes tremblaient, mon cœur s'emballait, la peur, la crainte, la fierté, le doute, tout m'assaillait devant cette inscription, que je ne connaissais que trop. C'était le nom de Massinissa en écriture libyque.

Suis-je devant le grand « agellid » ?

Le jour n'était pas encore levé lorsque je sentis une main qui me tapait doucement sur les joues. Quelqu'un me prenant par le bras, me secouait plus violemment. Il me semblait avoir perdu connaissance, ou bien, mon rêve était si puissant que je ne pouvais pas me réveiller. J'ouvris les yeux hébétés ; le soleil était déjà haut, la terre dégageait des

Je laissais le tombeau derrière moi, implanté dans une plaine entre deux flancs de collines, chevauchant aux côtés de la mère et l'enfant. Nous traversâmes l'étrange vallée, puis escaladâmes le tracé d'un sentier qui se faufilait entre les cèdres et les chênes. Au-dessus de la grande colline, de l'autre côté du monument, je vis la cité des rois Numides entre les faîtes des arbres et les colonnes en marbre d'un palais. Une cité ocre, entourée de vergers, de dattiers et d'orangers, puis des forêts de pins, des prairies, d'infinis champs dorés où l'épi de blé captait à lui seul toute l'énergie du soleil. Tout en bas, des chemins dallés, d'autres en terre, serpentaient entre les maisons aux couleurs pastel ou ornées de décorations teintées d'un mélange de rouge et de jaune, et dont les toits baillaient sous le soleil africain. Une cité providence, immuable celle de Massinissa dont j'ai eu le privilège de voir la grandeur et de comprendre cette aura qui marqua encore le nom de sa descendance, et la cruauté du temps qui a tout balayé.

Me fallait-il donc chercher la réalité dans le mythe ou dans l'Histoire? Mader-sen ne signifiait-il pas une alliance vitale de deux... deux forces, deux puissances: une union entre les hommes et les Dieux, entre les frères ennemis ou entre la terre et le ciel, entre les plaines et les collines? Ou tout simplement l'alliance entre deux sites importants, le tombeau d'Imadghassen et un autre, secret, caché, qui pouvait révéler tout ce que je recherchais. Généralement, on éloignait les voleurs et les pillleurs

ton aïeul Agag, fils de Madghis et arrière-petit-fils de Tabet mon père. La Numidie fut dévastée, des guerres et des invasions eurent raison de nous. Dans ces âges sombres, la bravoure était la seule constante qui nous permettait de régner sur ce monde où de perpétuels dangers guettaient nos terres et nos royaumes. Le monde s'étonnera de notre courage, louera nos intrépides cavaliers commandés par une reine. D'autres mettront en doute notre existence, et une troisième catégorie remplacera nos héros par des envahisseurs en élevant des monuments à leur gloire. Sache mon fils que ta reine n'est ni un mythe ni une légende, qu'elle n'a pas vécu plus de cent ans ni qu'elle lisait l'avenir, mais c'était une femme et une guerrière qui s'est dévouée à sa terre en combattant tous nos ennemis pour que cette flamme que je vois en toi reste allumée.

Viens avec moi, mon fils. Nous savions que du chaos du temps et des guerres, allait naître un dépositaire ; tu portes la marque des rois ».

Soudain, me voici dehors ; je sentis le soleil me brûler la peau et un vent chaud transportant des grains de sable me fouetter le cou et les joues. Je me retournai pour voir la bazina et sa forme cylindrique. La lumière faisait étinceler des sculptures dans le bas-relief, une série d'animaux comme un manège tournant, taureau, bélier, guépard, gazelle et un petit éléphant. Sur le sommet du monticule, une plateforme supportait un char tiré par trois chevaux majestueux dont les pattes de devant brassaient l'air, poussant vers le ciel un guerrier aux cheveux longs.

Ici est née la dynastie des rois numides qui tira sa force et son pouvoir de ces montagnes fauves qui nous entourent.

Ici, notre peuple nomade est devenu guerrier par ses commandements afin de nous maintenir, de proliférer, de sauvegarder notre race par des alliances et des guerres. Notre peuple est resté attaché à son humus ancestral, ce pays que vous nommez aujourd'hui l'*Adrar n'Auras*. Ne suis-je pas moi, sa reine et sa guerrière, la réincarnation de sa force et de sa témérité? »

Elle me parlait. Pourtant ses lèvres ne bougeaient pas mais sa voix s'insinuait en moi et sa langue m'était presque inconnue. J'en reconnaissais les sons, la tonalité, la phonétique, mais il y avait beaucoup de mots nouveaux. Je m'agitais dans mon sommeil, je désirais me réveiller, mais quelque chose me plombait les yeux, mon esprit ne voulait pas revenir, il continuait sa reconquête de cet espace. J'avais conscience que désormais, j'appartenais à ces lieux et rien ne pourra décrire ce que j'ai vécu, même le plus hardi des poètes fous ou maudits ne pourra trouver le verbe juste.

« Yimed t'a nommé notre père comme lui, te donnant la moitié de son prénom et l'autre moitié, Gherssen, est destinée à l'aîné de tes enfants. Ainsi Yimed-Gherssen se reconstituera grâce à toi, continua-t-elle. Tout est en toi, la mémoire de notre peuple, les écritures, les notes, ce qui sort et ce qui entre, les répertoires; tu es le gardien. Tu es celui qui consigne le destin des hommes comme

de voyage peut-être et des rites funéraires. Nous arrivâmes dans une salle lumineuse comme si nous venions de quitter la partie souterraine de l'étrange bâtisse qui n'existait pas dans mes souvenirs, ni dans mes recherches. La femme se retourna et me regarda un moment. Elle eut un effet immédiat sur moi, comme une brusque transformation intérieure. Je me sentis sujet et fidèle comme si j'étais soudain dans la peau d'un scribe dont l'urgence était de tout mémoriser. Je cherchais mes affaires, mes carnets mais je n'avais rien sur moi. J'étais même incapable de dire à quoi je ressemblais à cet instant. L'étrange rêve se poursuivait pour moi, me révélant à moi-même. L'enfant tout rouge d'excitation et souriant se retourna et je vis enfin le visage du petit chérubin comme si on avait transposé ses traits sur moi. La mère l'appelait tendrement : « Yazdi, Yazdi. »

« N'était-il pas encore mort le mort qui habitait ces lieux ? Ce mausolée fait à sa gloire : lui notre père à tous, le premier de nous tous, notre roi Madrès. Nous son peuple, nous l'évoquons dans nos prières et chaque fois qu'un danger nous menace, nous implorons sa protection. Il enfanta Massinissa, l'unificateur qui donna naissance à des rois, des princes et des princesses, des royaumes et des cités. Tu es le noble descendant, debout aujourd'hui sur notre terre d'origine.

Ici fut construit le tombeau des chefs, là où tout a commencé pour nous.

sud, mais qu'il m'était impossible de dire ce que c'était ni quelle était sa fonction.

Je n'avais jamais imaginé une telle architecture ; ce n'était pas qu'un assemblage de grosses pierres ou dalles, mais un ouvrage d'une grande précision. Les joints entre les nombreuses pierres étaient judicieusement remplis de crampons en bois de cèdre pour les solidifier entre eux et chevillés avec des goujons de plomb. Soudain, une femme passa devant moi sans se rendre compte de ma présence. Elle portait une robe noire brodée de fils d'or, d'argent, de dessins géométriques vert, jaune, orange, parme, une mosaïque de couleurs, retenue aux épaules par des fibules argentées incrustées de pierres ; de la citrine, de l'œil-de-tigre et du corail rouge. Elle riait et courait après un enfant qui s'enfuyait au-devant elle. Une impression de déjà-vu ; elle m'était familière ; le visage, les yeux, le tatouage sur le menton, les grandes boucles en forme de demi-cercle avec des petites boules pendantes de chaque anneau, et surtout les lourdes tresses cuivrées et roussâtres, entortillées autour des oreilles et maintenues par un diadème bombant le front.

Était-ce une aïeule ? Une reine ? Je m'embrouillais ; sans doute la fatigue, mais le vieil homme m'indiquait de son doigt de la suivre. La main de la femme se posait sur la paroi où s'animait à chaque fois un pan avec des dessins et des signes. Je découvrais, avec ces gravures et inscriptions, l'histoire authentique de mes ancêtres, ainsi que des noms de rois, de reines, des conquêtes, des guerres, des récits

des gravures ; béliers, taureaux, serpents et parfois des hommes à genoux ou portant une hache. J'avais l'impression de remonter le sentier d'une colline, puis à la hauteur du troisième gradin, je fus face à une énième porte décorée de part et d'autre avec un dessin en noir et rouge représentant une lionne et un lion. Elle permettait le passage vers une salle voûtée, avec un banc fait d'assemblages de pavés au plateau marbré posé contre la paroi rocheuse.

Je sentais que quelqu'un voulait s'emparer de mes pensées ou pénétrer ma tête. Avec une telle confusion en moi, je n'étais plus observateur, mais acteur, puis j'aperçus quelqu'un qui marchait devant moi : un homme portant des sandales en peau lustrée, avec des lacets entourant les chevilles, une tunique en lin brodée de motifs géométriques, s'arrêtant aux genoux, serrée à la taille par une ceinture faite de cuir et de cordon en laine, d'où pendillaient un couteau et un sabre à manche court. D'après son allure, il n'était plus très jeune. Il m'escorta à travers des corridors en forme de cercles, débouchant sur de multiples chambrettes, et, au troisième couloir, une première salle apparut, puis une seconde et enfin une troisième plus sépulcrale contenant des niches destinées à recevoir des urnes et un mobilier funéraire : table, banc et encore des ustensiles en terre cuite et en cuivre. Le vieil homme poussa une porte invisible qui sortait presque de la roche. Il descendit quelques marches pour arriver dans un passage souterrain assez long qui reliait le tombeau à un autre édifice semblant se trouver dans la partie

fouillais chaque centimètre dans les alentours de la bazina. Je regardais, touchais, auscultais les dalles, les amas de roches, je caressais les jointures, je mesurais, je recalculais, je creusais, prenant soin de noter la moindre découverte ou réflexion.

La nuit où tout commença était noire, un courroux sans précédent, comme si le ciel déversait toutes les eaux du monde sur ma tête, alors que je contournais le vieux monument, cherchant refuge sous l'une de ses grosses pierres séculaires. À mon départ, le ciel était d'un bleu étincelant, traversé par des rayons solaires telles des lampes lumineuses qui tombaient chatoyantes sur les arbres, les plaines et les collines avoisinantes. Pris par tant d'excitation, je n'avais pas vu le temps s'écouler ni remarquer l'accumulation de nuages bas et gris, si bien que l'obscurité arriva vite. Tant bien que mal, je m'installai dans une petite cavité salubre, enroulant ma veste en guise d'oreiller et, recroquevillé sur moi-même, je m'apprêtais à dormir. Le sommeil ne tarda pas tant j'avais passé la journée à tout explorer. Au milieu de la nuit, je fus brusquement réveillé par un bruit ressemblant à un chuintement. J'entrouvris les yeux. J'aperçus une dalle coulisser lentement entre deux autres et donnant sur un vestibule éclairé par deux torches nichées dans des supports en fer. Puis, de larges escaliers, au nombre de onze, apparurent, teintés d'un enduit vermeil menant vers un corridor que j'empruntai non sans appréhension. Le long couloir serpentait à l'intérieur du monument entre les murs sur lesquels s'animaient

l'humidité, l'effritement, bouffée à son socle par la corrosion menaçant cet aïeul bien fatigué d'être resté debout sans soutien contre l'anéantissement, sans avoir livré ses secrets.

Un tombeau mélancolique, gonflé d'un éclat passé, témoin d'une histoire qui ne peut pas mourir, qui risque de partir d'entre nos mains impuissantes à colmater ses brisures, à replacer ses jointures, redorer ses reliefs et reconstituer notre mémoire. Je me disais pourtant que le temps n'avait pas de prise sur les rois. Si ce tombeau a survécu plus de huit siècles, ce n'est pas rien, et je le regardais conscient que peut-être mes petits-enfants ne verront pas cette imposante silhouette près de la ferme familiale, comme c'était le cas pour moi. Ils l'auraient perdu, et ne connaîtraient pas l'histoire de leur aïeul, guerrier et gardien de ce royaume silencieux.

Mais, revenant donc à cet été 85 où, déambulant dans les parages du tombeau, je repensais à sa gloire passée où les prêtres et prêtresses devaient rendre aux défunts des hommages sans doute faits de processions, de sacrifices, de chants. La Numidie de l'époque, j'en rêvais et j'en cherchais chaque parcelle de vérité comme si j'avais été assigné à une mission. Je débarquais le matin de Boumia où mes parents avaient leur vieille ferme, avec des provisions, de l'eau, mon appareil photo et mes carnets de notes. Il m'arrivait de passer la nuit sur le site. Parfois, je discutais avec des visiteurs de passage, des touristes, sinon je restais bien des jours seul. Je prenais toujours au sérieux mes expéditions et

quête et, chez les plus vieux de la tribu, j'appris que le plus ancien métier des miens était gardien. Je trouvais cela bizarre : gardien de quoi ? La mémoire collective comportait des récits ayant traversé les âges où l'on racontait que mes ancêtres étaient gardiens du tombeau de génération en génération. J'avais une partie d'explication à mes visions nocturnes, et surtout à l'étrange personnage qui agitait mes nuits. Cette histoire me donna envie de chercher plus d'informations sur ces vestiges, maintenant que j'appartenais à cette race de gardiens et de guerriers à la fois, me dis-je, non sans amusement.

Ce qui m'était devenu primordial, mais aussi dangereux pour ma santé morale, car depuis, mon seul but dans la vie était de faire parler ces pierres massives et bien muettes. Toute cette curiosité, je la ressentais comme un héritage qui m'aurait été transmis post-mortem, mais qui m'avait conduit presque au bord de la folie, surtout devant mon incapacité à avancer dans mes travaux. C'était frustrant et je commençais à développer le syndrome Imadghassen.

Oh ! C'est une bien fragile histoire, si vulnérable, souffrant d'un manque flagrant de sources. Comment faire perdurer un récit venant des âges lointains sans d'autres preuves matérielles, des traces visibles, des témoignages, des découvertes pour réécrire ce qui nous échappe ? Se peut-il que tout se meure ? Que la réalité fût celle d'un site vieux de quelques millions d'années, figé dans de la pierre, aussi grande soit-elle ? Et, quelle pierre ? Usée par les années, par les intempéries, suintant l'érosion,

Pourquoi donc cette vérité s'imposait-elle à moi ? Tout ce que je savais, à ce moment-là, c'était que ce vestige valait toutes mes attentions et les divagations qu'il m'avait causées étaient plus exaltantes que la réalité. Je naviguais dans d'autres consciences que la mienne comme si mon esprit avait trouvé une clef qui ouvrait les portes du passé. Cela me troubla et me poussa à comprendre ce qui m'arrivait, jusqu'à ce que survienne cette soirée, la plus étrange de toutes. Une expérience semblable à l'envoûtement, ou plus, à la possession. Mon corps ne m'appartenait plus ; transformé, il avait été transporté hors du temps.

Ce fut cette nuit de juin 1985 que tout commença pour moi. Je dirais plutôt bien avant, lorsque j'étais étudiant en Histoire.

En vérité, ma communion avec le tombeau était plus ancienne que cela. Adolescent, je faisais des cauchemars où il était question d'animaux sauvages, de guerres, de cités antiques, des rêves inexplicables où j'étais un gardien pénétrant des lieux où nul autre que moi ne pouvait aller, et où ma mission était de veiller sur des ossements humains. Il m'arrivait de me sentir manipulé par quelque chose de plus grand que moi. J'interrogeais ma mère mais elle ne m'était d'aucune utilité ou ne désirait pas dévoiler des secrets. Elle attribuait tout cela à mes lectures. Mais, certaines nuits, elle voyait bien que j'étais connecté à un autre monde, ce qui lui donnait des sueurs froides. Elle tenta de me protéger avec des talismans. En grandissant, je commençai ma

LE SYNDROME IMADGHASSEN

Nassira Belloula

Le tombeau d'Imadghassen fait partie de mon paysage, ayant été élevé dans son environnement direct, apercevant son imposante et lointaine silhouette qui me nourrissait d'étranges rêves de bravoure et de bien des fantaisies. Il était toujours là pour moi, et j'étais continuellement attiré par lui. Je me disais qu'il était tout à fait normal que je m'intéresse à ces vestiges dans le cadre de mes études, en plus du fait qu'être de la région quadruplait ma curiosité. J'avais passé au tamis toutes les écritures possibles, des premiers textes de l'antiquité à nos jours, lisant toutes les recherches et les récits qui s'étaient construits autour du tombeau, entre mythes et réalités. Mais, je sentais bien qu'il y avait autre chose ; comme une force tranquille et incompréhensible qui me poussait vers lui, au point où il était devenu une obsession. Je passais tout mon temps sur le site, mes étés particulièrement, surtout celui de l'année 1985 qui allait me marquer par l'une des plus étranges des expériences, avec l'impression que quelqu'un désirait s'emparer de mes pensées. Et en effet, je ressentais comme une présence qui m'acculait.

milliers de tombes et d'autels, des milliers de gens et de familles. Faut que je les voie avant leur dégradation totale.

Bien que très loin dans sa voiture orange conduite dans la nuit noire par sa mère, Izza a semblé entendre. Elle s'est perdue dans ses pensées. Tout se dégrade. Même les gens. Ils sont debout, forts, et puis un jour ils faiblissent, s'affaissent, s'écroulent, se ruinent. Comme des ruines. Il faut qu'elle le voie avant qu'il parte.

12

Il est minuit. L'heure où tout se mélange, la fin d'un jour et le début du suivant. Le passé et le présent. L'Histoire et la géographie. Les ancêtres et les enfants.

Je m'appelle Izza et je ne suis plus une petite fille. J'ai 22 ans et je suis maçon. D'ailleurs je viens de construire un tombeau dans mon petit jardin de Boston. Circulaire. Pour mon père. Qui vient de mourir. Il s'appelait Madghis, son père lui a donné le nom d'un ancien roi amazigh. Mais ce n'est pas un pluriel. Pour moi, il est unique.

— Si on t'écoutait, tout est écrit dans ton Tassili.

— À l'époque, et depuis 50 000 ans, tout le monde écrivait sur des pierres, normal qu'on y trouve un peu de tout, comme sur Wikipédia.

Kami a éclaté de rire, le premier de la journée. Puis la nuit s'épaississant, il a demandé :

— La suite, c'est quoi ?

— Je ne sais pas, mais j'ai pris son numéro de téléphone. Au cas où.

— Je parlais de la suite de ton voyage.

— Je retourne chez moi.

— Lire des pierres ?

— J'aime bien la lecture.

Kami n'a pas commenté. Il a marché encore et pensé à son ex-femme, quelque part dans le Nord, à corriger des copies à cette heure en tant que professeur de littérature :

— Tu sais que Hadda est mariée ?

— On peut aimer sans toucher. Admirer le Tassili ou le Medghacen sans les creuser.

— Ce n'est pas ce que tu as fait. Tu as creusé.

— Non, c'est un accident.

Hmada a sorti de sa poche les clés de sa voiture jaune, signe qu'il s'apprête à partir. Il fait déjà si nuit en cet hiver.

— Où tu vas maintenant, Kami ?

— Voir les sites mégalithiques de la région, Bounouara, Sigus, Chemora. Ce sont les plus grands d'Afrique du Nord, voire d'Afrique. Des

— Désolé.

— Pas grave.

Après quelques secondes de recueillement en hommage aux parents, Hmada a souri :

— Un linguiste qui ne connaît pas la signification de son nom...

— C'est peut-être pour ça que je suis linguiste.

Les deux compagnons ont marché les mains derrière le dos vers le Nord et la montagne Azem. Puis sont revenus vers le Medghacen, plus beau que jamais dans le vent venu caresser ses imperturbables pierres.

— C'était quoi ton trésor, Hmada ?

— Hadda.

— Comment ça ?

— Une belle femme aux cheveux noirs, venue d'une lointaine terre étrangère. C'était ça qui était gravé dans ma pierre.

— Ce n'était pas la galerie ?

— Non, je l'ai trouvée par accident, grâce à une autre gravure.

Kami, pessimiste professionnel au sens critique trop développé, a réfléchi quelques secondes puis s'est tourné face à Hmada :

— Tu sais que je ne crois absolument pas à tes histoires de pierres gravées et de trésors ?

— Tu ne crois pas aux pierres ?

— Ce n'est pas ce que j'ai dit.

— Si.

Lakhdar est sorti du Medghacen, empoigné énergiquement au cou par l'inspecteur. Il a détaillé les alentours, il connaît cette plaine et ces montagnes. Il a détaillé le monument, il ressemble au Medghacen, mais comme si on l'avait restauré et retapé. Il connaît cet endroit mais il semble pourtant très différent. Où est-il ? Comment a-t-il fait pour descendre dans une galerie et se retrouver à l'air libre, là où il a démarré ? L'inspecteur a attaché Lakhdar au monument et lui a posé des questions qu'il n'a pas comprises. Mais où est-il ? Qui sont ces gens habillés si bizarrement et parlant une langue si familière mais incompréhensible ?

Dans quel pays je suis ? À quelle époque ?

11

Hmada et le linguiste ne savent quoi faire. Ils ont tendu l'oreille une dernière fois pour tenter d'entendre un quelconque bruit venant de la galerie. Rien. Que le silence du vent venu chasser la pluie. Lakhdar a disparu. Hmada a brisé le silence pour revenir à sa question préférée :

— Comment tu t'appelles ?

— Kami.

— C'est un diminutif ? De Kamel ?

— Non. Kami.

— Ça veut dire quoi ?

— Je ne sais pas.

— Tu as demandé à tes parents ?

— Pas eu le temps, sont morts très tôt.

Le groupe a ainsi attendu quelques minutes, personne n'osant aller chercher Lakhdar. C'est le Hadj qui a conclu :

— Bon, on s'en va, il va faire nuit.

— Et le jeune ?

— Il s'en sortira bien tout seul, lui qui connaît si bien ce monument.

Ils se sont regardés, ne sachant quoi faire. Puis El Hadj a salué tout le monde et s'est dirigé vers son 4X4 noir en rangeant son couteau dans la ceinture. Hadda a pris sa fille par la main :

— Viens chérie, il se fait tard.

Voyant le mouvement, l'employée de la mairie a fait de même et est partie rejoindre sa voiture :

— C'est vrai qu'il est tard, et je ne suis pas payée pour les heures supplémentaires.

En quelques minutes, Hmada et le linguiste se sont retrouvés seuls devant le Medghacen. La petite plaine verte mouillée tout autour. Le silence.

10

— C'est qui celui-là ?

L'inspecteur des travaux finis est entré dans le mausolée presque fini et en a sorti un homme, jeune, étrangement vêtu, une petite barbe très mal taillée. Sa femme a détaillé l'arrivant :

— Ils s'habillent vraiment n'importe comment aujourd'hui.

— C'est un pilleur de tombes ? On le mange ? plaisante son collègue.

Après plusieurs réflexions et hésitations, c'est Hadda qui trouve la solution :

— On a qu'à envoyer le jeune escroc. Il le mérite largement.

L'idée semble être bonne. Hmada et le linguiste partent le détacher et le ramènent près du trou :

— Vas-y, on t'attend là.

Lakhdar, découvrant l'inquiétante cavité, refuse d'y aller. Mais en sentant le skikdi pointu d'El Hadj dans son dos, il consent à descendre, se disant qu'il y a peut-être moyen de s'enfuir par là. Heureux, El Hadj ne peut pas s'empêcher d'ironiser :

— 3 000 mètres carrés, 20 mètres de hauteur de plafond... Tu me donneras des détails de la cave, voir si je peux y garer ma voiture.

— Qu'est-ce qu'il raconte ? demande à voix très basse l'employée de la mairie à Hadda.

Lakhdar est descendu. La nuit arrivant et l'obscurité du trou aidant, en quelques secondes il disparaît du champ de vision.

— Lakhdar ? appellent-ils en groupe.

Pour toute réponse, quelques bruits de pas.

— Lakhdar !!!

Toujours pas de réponse. Hmada a peur, il fait un signe d'invocation au Dieu unique :

— Je savais que ce n'était pas bon.

— On n'entend même plus ses pas, remarque Hadda.

— Je ne comprends pas pourquoi tu as découvert cette galerie, lui demande le linguiste.

— Comment tu savais qu'il y avait une galerie?

— J'ai trouvé sur une gravure qui l'indiquait.

— Dans le Tassili?

— Oui.

— Et où est cette gravure maintenant?

— Dans le Tassili.

S'approchant du trou qui délimitait l'entrée de la galerie, le groupe a eu une hésitation malgré l'importance de la découverte :

— Je crois que c'est interdit, a timidement fait remarquer l'employée de la mairie.

— En plus ça fait très peur, a renchéri Hadda.

— N'y va pas maman, supplie Izza.

— Il n'est pas question que j'y aille ma chérie.

— On fait quoi alors? demande El Hadj, peu curieux de ces choses souterraines. Il commence à pleuvoir.

Le linguiste, excité par cette galerie jamais identifiée ou du moins officiellement, reste quand même craintif à l'idée de s'aventurer sous cet édifice qui menace de s'écrouler. Surtout parce qu'à cinquante ans révolus, il a pris de l'embonpoint et ne pourra jamais passer :

— Hmada, c'est ta découverte. C'est à toi d'y aller.

— Jamais de la vie, répond-il, je suis superstitieux, ces trucs-là c'est plein de mauvaises choses.

— Et ton trésor?

— Mais ce n'est pas ça mon trésor, tu n'as rien compris.

— C'est bizarre, j'entends toujours ce bruit.

— C'est l'orage qui arrive, lui répond son collègue.

Pendant que la femme de l'inspecteur tente elle aussi d'identifier ce son étrange, son mari est de plus en plus formel. Il a regardé le ciel, effectivement chargé :

— Non, ça vient d'en dessous. De la galerie secrète. On dirait des bruits de pas, de quelqu'un qui marche.

9

Après avoir fait le tour du Medghacen pour rejoindre le groupe, Hmada leur a expliqué sa découverte :

— J'ai trouvé une galerie souterraine. Venez tous !

El Hadj, le linguiste, Hadda et Izza suivent Hmada. Seul Lakhdar toujours attaché, ne peut bouger, ni même voir de loin cette galerie :

— Il a dit tous...

L'employée de la mairie est arrivée la dernière, rejoignant tout le monde devant un trou béant, sombre et humide, d'une cinquantaine de centimètres de diamètre, tout juste assez grand pour le passage d'une personne mince. La galerie était bouchée par de grosses pierres calcaires plates jointées avec des agrafes de bois et plomb, ce qui donnait l'impression de n'être qu'un pavement pour le sol. Avec le temps, elles se sont désolidarisées et Hmada a simplement mis une barre de fer dans les fissures pour les soulever. Le linguiste a chuchoté à l'oreille de Hmada :

ont croisé une nouvelle voiture qui arrivait. Seul le Hadj est resté à côté de Lakhdar, jouant avec son couteau pour lui faire peur.

La nouvelle voiture, blanche, s'est garée et une jeune femme la tête recouverte d'un voile noir en est descendue. Arrivée au pied du Medghacen, elle a vu Lakhdar attaché et El Hadj qui avait heureusement rangé son couteau.

— Il se passe quoi ici ?

— Une longue histoire. Vous êtes une touriste ?

— Non, employée de la mairie. Je suis venue faire le constat de la dégradation du Medghacen.

Le linguiste, qui n'était pas loin, a entendu cette phrase. Il s'est rapidement rapproché du groupe :

— Notre passé se dégrade sous vos yeux et vous ne faites rien.

— On n'a pas d'argent.

— Ce n'est pas qu'une histoire d'argent. Quelques matériaux, un bon maçon et un spécialiste de ce type de monuments suffisent.

Au moment où elle allait répondre, un cri derrière le Medghacen a troué l'espace :

— J'ai trouvé!!

8

— Bon, on y va, il va bientôt faire nuit. On n'a plus le temps et je répète que j'ai faim.

Autour de l'imposante construction qu'ils ont théoriquement terminée, l'inspecteur est toujours inquiet :

Le linguiste a corrigé :

Medghacen, c'est Imedghracen, un pluriel en Tamazight, celui d'amedghas. Ce ne peut pas être un roi, on n'enterre pas les rois au pluriel. Un roi c'est unique. C'est peut-être une famille ou une petite tribu qui est enterrée ici, ce serait plus logique.

— Une famille royale ?

— Aucune idée. Peut-être la famille de Medghas, mais le nom de la mechta d'à côté et celle de cette montagne au Nord, est Azem. Il semble plus indiqué que ce soit Azemet sa famille qui soient dessous. Peut-être un roi, mais de cette région.

Hmada n'aime pas contredire les gens. Il demande :

— Azem ? Qui signifie ?

— Ça doit venir d'izem, le lion.

— Ils ont enterré un lion ici ?

— Pourquoi pas ? C'était un animal-dieu, adoré, craint et respecté.

Lakhdar a demandé :

— Ton prénom c'est quoi au fait ?

Le linguiste n'a pas répondu. Hmada, amusé et intrigué en même temps, a attendu quelques secondes puis a conclu :

— Un linguiste qui perd sa langue...

Hmada a quitté le groupe pour faire le tour du mausolée. Il cherche un indice de son trésor. Le linguiste aussi s'est éloigné, parlant tout seul à voix basse. Hadda et sa fille sont allées vers le sud, en direction du Djebel Tasfaout. En chemin, elles

Laissant le Hadj et le scientifique tenir Lakhdar, Hmada est parti vers sa voiture et en est revenu avec une corde. À trois, ils ont attaché le jeune voleur de sépultures à un bout de métal qui n'avait rien à voir avec la construction historique. Puis les quatre hommes ont traîné, chacun vers l'un des quatre points cardinaux, s'enfoncer dans leurs pensées. El Hadj s'est mis à chercher son couteau perdu et Hmada est revenu pour aller vers le linguiste et le prendre discrètement par le bras. Il l'a emmené un peu plus loin et lui a parlé :

— Bien sûr, tu ne parles pas de cette histoire de trésor.

— Pas de problème, il n'y a pas de trésor.

— Et je ne suis pas un pillleur de tombe.

— Il n'y a rien à piller.

Au bout de quelques minutes, tout le monde est revenu vers le Medghacen, point central dans cette étendue désolée. Même la petite Izza, une poignée d'herbes à la main, s'est recentrée vers le mausolée.

— C'est de l'armoise, chérie, du chih, lui a expliqué sa mère en anglais, on fera une tisane avec ce soir, c'est très bon pour tes douleurs.

Honteuse que ses premières règles soient ainsi dévoilées, Izza a baissé la tête en rougissant. Mais personne n'a compris. Le Hadj, tout content, a retrouvé son couteau et menacé avec Lakhdar, mort de peur. Puis il s'est retourné vers le scientifique :

— Qui est enterré ici ?

— Un ancien roi berbère, Medghas, a répondu Hmada.

La femme fait le tour du mausolée, dans le sens des aiguilles d'une montre, tenant la petite fille par la main, puis revient à son point de départ.

— Je me présente, Hadda. Voici ma fille, Izza,

— Touristes? demande le linguiste.

— Oui et non. Je suis originaire des Ouled Zouaï, au bord du lac Zmoul, à 15 kilomètres à vol d'oiseau d'ici. Mais je vis loin d'ici, aux États-Unis. J'ai émigré avec mon mari à Boston il y a dix ans. Les terres ici sont vieilles mais pauvres, chargées d'histoire mais pas vraiment de ressources.

— Le père n'est pas venu?

Elle a mis un moment à répondre, puis elle a lâché, en regardant le Medghacen :

— Non. Il est fatigué.

La petite Izza a semblé triste à cet instant. Elle a lâché la main de sa mère et s'est éloignée un peu pour marcher dans la prairie ramasser quelques armoises.

— Et ce jeune homme, pourquoi vous le tenez comme ça?

— C'est un escroc, explique le linguiste, il a essayé de vendre le Medghacen à quelques riches crédules et ignorants.

Le hadj a froncé les sourcils, mais a réalisé que c'était vrai. La femme a repris, furieuse :

— Vendre le Medghacen? Mais il faut le pendre!!!

— Il n'y a pas d'arbres, hélas, lui a répondu Hmada.

— Vous allez faire quoi de lui?

Hmada et le vieux Hadj se sont calmés. Puis ce dernier a détaillé ces deux nouveaux arrivants qui l'ont aidé :

— Et vous, vous faites quoi ici ? Vous avez lu une annonce aussi ?

— En quelque sorte... moi je viens de très loin, explique Hmada, j'ai mis deux mille ans pour arriver.

— Deux mille kilomètres, tu veux dire, le corrige son compagnon.

— C'est équivalent.

— Et toi ? demande le Hadj au scientifique.

— Un chercheur, en phase de recherche.

Lakhdar, dont l'emprise sur lui s'est un peu relâchée, a regardé la voiture jaune. Hmada a suivi son regard et deviné sa pensée :

— Laisse tomber, la clé est dans ma poche.

Le Hadj a compris aussi :

— Moi j'ai une alarme, je peux l'arrêter à distance.

Les quatre hommes regardent la voiture à l'étrange couleur affalée au bord d'un petit ravinement quand ils aperçoivent une autre voiture, orange, arriver. Elle se gare, près des deux autres, et, une femme et une fille d'une douzaine d'années en descendent. Les deux nouvelles arrivantes se rapprochent du mausolée, la femme, élégante dans une robe couleur de pierre, lance un salut général et s'arrête au pied du Medghacen :

— C'est magnifique, non ?

— Majestueux, lui répond Hmada.

qui ne l'avait pas vu venir. Le linguiste, dans une neutralité historique, lui a demandé :

— Pourquoi c'est lui que tu attrapes ? On ne connaît rien de leur histoire.

— Il faut toujours attraper le poursuivi, pas le poursuivant.

Lakhdar, étonné par la présence des deux hommes, a tenté de se débattre mais n'a pas pu se libérer. Le Hadj est arrivé et l'a saisi à son tour. Lakhdar s'est immédiatement immobilisé en calculant le rapport de forces. Trois hommes, lui, le Medghacen, une plaine vide. En bon vendeur, il sait qu'il n'a aucune chance.

— Tu as de la chance, lui crie le Hadj haletant, mon couteau est tombé dans la course.

— Un couteau ? demande Hmada. À ce point ? Qu'est-ce qu'il a fait ?

Le Hadj, fatigué de sa course, s'est assis sur une pierre, un reste du Medghacen écroulé par terre, pour retrouver son souffle perdu. Un silence s'est de nouveau installé dans la plaine des Azem, à peine perturbé par le rythme des poumons du vieil homme. Puis le Hadj a raconté l'histoire de Lakhdar le petit filou des montagnes, vipère des oueds et scorpion des pierres. Le linguiste n'a pas eu l'air étonné, blasé de l'inconscience des hommes, mais Hmada a paru choqué :

— Vendre le Medghacen ?!! Mais c'est comme si tu vendais ton père ! Ou ta mère !!

— Ça, c'est déjà fait, a répondu Lakhdar, par pure provocation.

Djendli, est apparu le monument circulaire. Le Medghacen. On ne le sent pas vraiment dans cette vallée plus ou moins déserte, mais les Romains ne sont pas passés bien loin : le périmètre de Timgad est à 10 kilomètres au Sud. Dans cette région, haut lieu de la Révolution, celle du XXI^e siècle, pas celle contre l'Empire de Romulus, Hmada et son compagnon de route sont restés muets par l'admiration et le recueillement. Après avoir traversé une mechta, celle des Azem, ils se sont arrêtés au pied de l'imposant Mausolée, planté au milieu du vide : Le Medghacen. Hmada s'est garé à côté d'un gros 4X4 noir et a éteint son moteur. Ils sont descendus et ont marché vers le sanctuaire.

— Qu'est-ce qu'il se passe ? demande Hmada, étonné.

De derrière le Medghacen, un jeune homme a surgi en courant, poursuivi par un autre homme plus âgé. Le jeune a fait une cinquantaine de mètres vers l'Ouest puis voyant qu'il n'y a nulle part où se cacher dans cette plaine désolée, il est revenu vers le Mausolée et s'est mis à tourner autour, le vieux trop vieux ne pouvant pas le rattraper. Au bout du troisième tour, il a compris et s'est arrêté pour attraper Lakhdar l'escroc de l'autre côté. Mais celui-ci a anticipé et s'est mis à tourner dans l'autre sens. Le vieux a lui aussi fait demi-tour mais Lakhdar l'arnaqueur, le vendeur de tombeaux, est plus malin. Heureusement pour l'archéologie et la morale, Hmada est arrivé à ce moment-là et l'a saisi de ses puissantes mains, surprenant le désosseur de morts

— C'est bon, on y va. Il commence à pleuvoir.

— Pas encore.

Celui qui semble être l'inspecteur des travaux finis n'a visiblement pas fini. Il est entré dans son édifice circulaire et en est ressorti peu après :

— Je crois que j'ai mal bouché la galerie souterraine.

— Pourquoi la boucher ?

— Contre les pilleurs de tombes.

Sa femme a senti aussi la pluie mouiller sa tunique et a regardé son mari sans rien dire, avec uniquement une tendre pression du regard.

Le collègue insiste :

— Il pleut et j'ai faim. On va manger.

— Tu ne penses qu'à manger.

— Quand on travaille, il faut manger.

De ce bref débat sur l'énergie, la femme de l'inspecteur en a profité pour sortir un argument de taille :

— J'ai une surprise pour toi, j'ai de la gazelle.

Le mot a touché les deux hommes et de petits gargouillis de ventres creux ont résonné dans la plaine. Mais l'inspecteur est un inspecteur, sa fonction est de tout trouver normal :

— Attends. C'est bizarre, j'entends un bruit à l'intérieur. Ce n'est pas normal.

7

Dans une petite plaine d'herbe verte et d'armoise blanche entre deux montagnes près de l'ancien lac

— D'ailleurs avec le pillage, poursuit le scientifique, on ne sait même pas qui est enterré dans tous ces mausolées. Le tombeau de Massinissa au Khroub? Ce n'est pas lui qui est dedans, l'âge ne correspond pas. Le Mausolée maurétanien de Tipaza? On ne sait pas qui est dessous, Juba, sa femme Séléné ou quelqu'un d'autre. Les Jdars de Frenda? On n'en sait rien, d'anciens rois berbères, mais lesquels? Le tombeau de la reine Tin Hinan à Abalessa? Tout faux, les dernières recherches ont montré que c'est un homme qui y est enterré. Même pour ton Medghacen, personne ne sait pour qui il a été construit.

— Je vais au Medghacen, lui répond Hmada, toujours souriant.

La voiture jaune a ralenti puis s'est arrêtée au bord de l'usine de montage Kia, au croisement de la RN3 et du CW135 qui traverse la plaine verte vers la droite.

— Je vais prendre ce petit chemin, annonce Hmada.

— Finalement je viens avec toi. Je verrais ensuite comment aller à Constantine.

Sans faire de remarque, Hmada a gentiment regardé son compagnon de route et redémarré la voiture jaune. Ils sont entrés dans le chemin.

6

Deux montagnes sombres qui se font face. Au milieu, une petite plaine bien verte en contrebas, arrosée par une rivière à l'eau pure. En haut, le ciel se charge.

— Le djebel Touggourt à gauche, indique le linguiste en désignant la direction nord-ouest.

— Touggourt ?

— Oui, comme Touggourt pas loin de là où tu m'as pris en stop. Un toponyme qui désigne un mont rocheux.

La voiture a continué à rouler en silence dans cette encoche naturelle vers le Nord, évitant la ville pour se retrouver encore sur la RN3, se faufilant entre deux rangées d'impressionnants massifs. Aux environs de Djerma, Hmada a ralenti :

— Nos chemins se séparent. Je quitte la grande route, je suis arrivé. Ici tu peux trouver quelqu'un qui te déposera à Constantine, ce n'est pas loin.

— Je sais. Tu vas où ?

Hmada a hésité un peu puis a répondu :

— Au Medghacen.

— Le mausolée ?

— Oui.

— Tu vas faire quoi là-bas ?

— Chercher mon trésor...

— Quel genre de trésor ?

— Un trésor. Un vrai.

Le linguiste a, de son bras, fait un geste de mépris :

— Tous les tombeaux ont été fouillés et ravagés par les pilleurs de tombes depuis des siècles. Il n'y a plus de trésors.

Hmada n'a rien dit, se contentant de sourire, comme si les informations du linguiste n'avaient aucune prise sur ses rêves.

Un nouveau silence a ponctué cette réponse aussi vague qu'un terrain vague resté longtemps dans le vide. Puis le linguiste a demandé :

— À propos, pourquoi tu t'appelles Hmada ?

Hmada, la cinquantaine, sourit :

— Je suis plat, sec et fissuré par les ravinements. Comme une hamada. Mais pas comme un Tassili.

— La hamada est aussi un toponyme, mais arabe. Ce n'est pas ton vrai nom ?

— Et toi ? Tu t'appelles comment ?

Le gérant du café est sorti, interrompant la discussion :

— À qui est la voiture jaune ?

— À moi, tu veux savoir pourquoi elle est jaune ?

— Non, tu n'aurais pas de câbles pour démarrer ma batterie ? Elle est morte.

— Non, désolé.

— Pas grave. Ce ne sont pas les gens en manque de café qui manquent par ici.

— Je préfère le thé.

Le gérant n'a pas entendu la dernière phrase, il était déjà retourné dans son café. Les deux compagnons se sont levés, ont payé un café et un thé, et repris la route. Aïn Touta, la source des mûres sauvages, puis Batna, ville récente dont l'étymologie suggérerait le ventre en Arabe, ville plate à l'ombre des montagnes. Le linguiste connaît bien la région, il sait qu'il est près de Batna quand il aperçoit vers l'ouest le massif du Belezma et son immense cédraie :

— Ça y est, on est dans la montagne, a lâché Hmada avec un soupir de soulagement.

— Ça te fait quoi, toi qui vis dans le désert ?

Pas même vexé, Hmada a précisé :

— Là d'où je viens, le Tassili n-Ajjer, c'est la montagne.

La voiture jaune a continué à rouler quelques minutes puis Hmada s'est arrêté devant un café improbable, petite bicoque au milieu de nulle part. Il est descendu, suivi par le linguiste.

— Je suis soulagé parce que ça veut dire qu'on est dans le Tell, le nord. Pour moi la limite est là.

Ils ont commandé un thé et un café, le premier évidemment pour le Tassilien. Ils se sont assis dehors sur deux pierres, probablement aussi vieilles que le monde. Le linguiste reprend :

— Le Tassili, ce sont des massifs rocheux entaillés par des oueds, c'est un toponyme berbère très ancien. Mais tu sais d'où vient le mot Ajjer, du Tassili n-Ajjer, le Tassili d'Ajjer ?

— Pas vraiment, répond Hmada, on dit que ça vient d'azguer, le bœuf, qui pullulait dans le coin à l'époque préhistorique.

— C'est ce qu'on dit, mais en réalité, le mot signifie « Dieu », le Tassili de Dieu. Les Égyptiens anciens, dont vous êtes les cousins directs, appelaient Dieu Atjer. Tassili n-Ajjer est le Tassili de Dieu, un don du Très-Haut.

— Tu n'es pas berbère ?

— Je ne sais pas.

— Je pense que je vais te tuer. Je suis venu de Skikda pour ça ?

— J'adooore Skikda, d'ailleurs cette autoroute, la RN3, mène directement à Skikda, c'est incroyable, non ? s'esclaffe de nouveau Lakhdar.

Voyant le Hadj au bord du meurtre, il se calme subitement et prend le ton de la confiance :

— Écoute, tu prends la maison, je te donne le terrain en plus, concède-t-il d'un air surjoué de générosité avec un geste circulaire des bras pour montrer tout l'espace autour. Tu pourras planter des palmiers, des fraises, des pommes de terre et même des voisins et des enfants, tout pousse ici, c'est une très bonne terre. C'est comme du pain.

— Les yeux du Hadj sont devenus noirs. Il a tiré de sa ceinture son couteau dont il ne se sépare jamais, malgré son statut de notable aujourd'hui. Un skikdi d'ailleurs, comme on appelle ce genre de couteau. De Skikda :

— Finalement, je vais te tuer.

5

La route est longue mais finit toujours à un moment. Après Oumache, ils ont contourné Biskra, la grande ville, capitale des Zibans et ont rejoint la petite Outaya puis le lieu-dit La fontaine des gazelles où il n'y a plus de gazelles mais un grand barrage d'eau douce. Pour les Hommes. Un peu fatigués, les deux voyageurs ont franchi les gorges d'El Kantara, étroite entaille dans les premiers massifs des Aurès.

Deux couleurs primaires, Lakhdar s'appelle logiquement Lakhdar, le vert. En voyant El Hadj rouge de colère, il tente de se justifier :

— Je ne t'ai pas menti, El Hadj.

— Dans l'annonce que tu as publiée, c'était maison en pierre, 3 000 mètres carrés, 20 mètres de hauteur de plafond...

— Hahaha, ben voilà, tout est vrai, confirme Lakhdar parti sur un nouveau fou rire. Tu peux mesurer!!

Le Hadj, vaguement calmé, a détaillé l'édifice une nouvelle fois :

— Ce n'est pas un monument historique ou un truc comme ça ?

La question s'est posée. Peut-on vendre le Medghacen ? Mais à qui appartient-il ? Aux descendants de celui qui y est enterré ou de ceux qui l'ont construit ? Si l'État ne le prend pas en charge, peut-il revenir aux gens de la région comme les Azem, qui ont donné leur nom à la mechta du coin et à la montagne ? Mais qui est Azem ?

Pour El Hadj, qui a réussi dans plusieurs domaines grâce à son sens aigu des affaires, la seule question à poser est celle-ci :

— Tu as les papiers de cette chose ?

— Non, mais c'est en cours. Le temps qu'on fasse la transaction, j'aurais tous les papiers. Mon oncle travaille à la mairie. Qu'est-ce que tu en penses ?

Le Hadj a réfléchi une demi-seconde à ce nouveau paramètre et s'est emporté :

— Justement, pense aux avantages... pas de voisinage, de l'air pur, de l'eau courante, même qui court très vite, rigole encore Lakhdar en montrant une rivière allongée à côté.

Le Hadj a fait le tour de la bâtisse, dans le sens contraire des aiguilles d'une montre, comme on le fait pour le Hadj autour de la Kaaba à La Mecque, c'est-à-dire dans le même sens que la rotation de la Terre autour d'elle-même. Deux cents mètres de circonférence, soixante colonnes. Puis il est revenu à son point de départ.

— C'est n'importe quoi, a conclu le Hadj, furieux, c'est une arnaque...

Sans se démonter, Lakhdar s'est pris d'un nouveau fou rire :

— Une arnaque... ha ha ha, on voit bien que tu n'es pas d'ici...

Reprenant son discours, il développe :

— Regarde ! Pierre naturelle, sécurisé, bio, vue sur la montagne, accès direct à l'autoroute...

— Autoroute ?

— Oui, la RN3, elle est juste là, fait Lakhdar en désignant l'ouest. De là, Batna, Constantine, Alger, ou de l'autre côté, Biskra.

— Une route n'est pas une autoroute.

— Ici, si.

Lakhdar est né pas loin, dans ces complexes et grandioses Aurès, plus exactement entre le Djebel Lazrag, ce qui signifie la montagne bleue, et l'Ahmar kheddou, qui veut dire la joue rouge.

s'il ne l'avait pas vu depuis longtemps, alors qu'il ne l'avait jamais vu :

— Alors, El Hadj, la route a été longue ?

De plus en plus suspicieux, le riche homme d'affaires a à peine répondu :

— La route c'est la route.

Lakhdar a éclaté de rire, se tapant les côtes en répétant la phrase, « la route c'est la route » :

— Haha, trop bonne celle-là !

Le vieux hadj s'est montré impatient :

— Alors, c'est quoi cette histoire de maison en pierre à vendre ? Ce n'est pas ce que tu m'avais dit au téléphone.

Lakhdar a montré la bâtisse derrière lui :

— Viens, je vais te montrer. Il y a de petits travaux à faire, mais ce n'est rien.

Les deux hommes se sont dirigés vers l'édifice aux pierres d'un blanc jauni par le temps. Le Hadj a bien sûr posé la question :

— Ça a l'air très vieux ton truc... quel âge ?

Une fois de plus, Lakhdar éclate de rire, se tapant les cuisses avec les mains :

— Haha, quel âge... trop bon !!

Il se reprend puis explique :

— C'est du neuf. Mais vieilli, c'est une technique pour donner du charme. On a l'impression que c'est vieux, mais c'est pour la chaleur humaine, El Hadj. C'est moderne.

— En parlant de chaleur humaine, je ne vois personne dans ce trou perdu.

— Stil, a répété le linguiste en regardant la plaque.
Étrange nom...

— Toi qui connais les origines, ça vient d'où?

— Aucune idée. En Anglais, Still ça veut dire encore.

— On n'est pas en Angleterre.

— Je sais.

Nouveau silence, la voiture a traversé la petite ville puis retrouvé sa vitesse de croisière, laissant loin derrière les chotts, sebkhas et flamants roses. Il vient une question au linguiste :

— Pourquoi ta voiture est jaune?

— C'est le soleil.

4

Une petite plaine délimitée par deux montagnes au nord et au sud, Djebel Azem et Djebel Taфраout. Des pâturages bien verts et quelques cèdres sur les hauteurs. Le gros 4X4 noir s'est garé au bord du chemin qui mène vers Boumia et le lac Djendli. « Ça doit être ici ». Il a consulté son GPS une dernière fois puis est sorti de sa voiture pour marcher. Au loin, il a vu Lakhdar, bien qu'il ne le connaisse pas. « Ça doit être lui », le vendeur. Le jeune Lakhdar a accouru vers le visiteur, l'air entreprenant et avenant. Derrière lui, une immense bâtisse circulaire en pierre, dressée au milieu de nulle part. « Ça doit être ça », s'est dit l'acheteur, intrigué. Arrivé à son niveau, Lakhdar a tout de suite embrassé chaleureusement l'homme, comme

La conversation a été brève. Hmada a jeté un dernier regard vers un bechrous, et son invité, un ultime coup d'œil à sa voiture bleue. Puis les deux compères sont montés dans la voiture jaune.

— Bismillah.

Ils ont rejoint à quelques centaines de mètres la RN3 puis Hmada est allègrement passé à la vitesse de 120 kilomètres à l'heure :

— Dans mille ans, ce sera considéré comme une trace archéologique, plaisante-t-il.

— Quoi ?

— Ta voiture. Elle va être recouverte par du sable et disparaître. Puis un jour, on va la découvrir. Dans mille ans, on ne comprendra pas bien cette histoire.

— Justement, je travaille sur ça.

— Sur les voitures ?

— Non, je suis chercheur. Linguiste plus exactement. Je travaille sur la toponymie.

— C'est quoi ?

— L'origine des noms, des lieux...

Les deux hommes se sont tus, comme on le fait souvent dans les longs voyages, pour économiser des mots et laisser le silence faire le reste. Les lieux-dits défilent par les fenêtres ouvertes malgré l'hiver, Tinedla, Sidi Khelil, El Mghaier puis Stil, au croisement de deux routes importantes, la RN3 qui file vers le nord et l'autre route qui redescend vers le sud-est direction El Oued, de l'autre côté des chotts.

des circumambulations. Celui-ci a bien vu Hmada mais a fait un dernier tour pour s'arrêter à son niveau :

— De toute façon, cette voiture est morte. Je vais la laisser là.

Hmada s'est senti obligé de faire un commentaire positif :

— Il y a des choses qui meurent et d'autres qui peuvent être réparées.

— Crois-moi, pour cette chose, il n'y a rien à faire.

En effet, en plus d'être visiblement en panne, la voiture a les deux roues de côté enfoncées dans cette molle mixture de sel et de sable du chott. De plus, son âge très avancé rend les diagnostics assez sombres.

— Il te faut une dépanneuse, lance encore Hmada pour tenter une solution.

— Au prix où ça coûte et pour une voiture morte, je préfère continuer à pied.

Hmada n'a réfléchi que quelques secondes pour faire une offre généreuse :

— Je suis en voiture. Tu vas vers le nord ou le sud ?

C'est logique, ici, à Tighdidine, la route orientée Nord-Sud ne laisse que deux possibilités. Vers l'est et l'ouest, il n'y a que du sable cruel sur 200 kilomètres dans les deux directions.

— À Constantine.

— Le nord. Je vais à Batna.

— Parfait.

pas au bord de la mer du Nord. Et surtout, Hmada vient de Djanet, parti par la RN3. En direction du Nord. Le tell.

Quelques coudées royales plus tard, Hmada s'est écarté un peu de la RN3 pour s'arrêter à Tighdidine, posant son véhicule au bord du Chott du même nom, à une quarantaine de kilomètres au Nord de Touggourt. Une halte sur cette route interminable mais surtout pour contempler les flamants roses. C'est la saison, le bechrous comme on l'appelle dans la région, vient souvent faire une pause ici en plein désert, arrivant du Nord rejoindre l'Afrique subsaharienne pour la migration annuelle. Hmada a de la chance ; quelques volatiles roses sont posés au loin, leurs pattes gracieuses délicatement enfoncées dans le sel de la sebkha, de leurs becs filtrant la faible quantité d'eau d'hiver pour en tirer les microalgues dont ils se nourrissent.

C'est en regardant au bord de ce chott arrosé autrefois par l'Oued Ghir que Hmada a remarqué au loin un homme tournant comme un fou autour de sa voiture bleue, plusieurs fois. Un homme en panne probablement. Il n'est pas d'ici, à voir son comportement névrotique et sa tenue vestimentaire. Hmada s'est rapproché à pied ; la mer c'est comme le désert : c'est vaste et dangereux, et comme pour un bateau en perdition, on ne laisse jamais quelqu'un en panne avec sa voiture. Arrivé à son niveau, Hmada a lancé un petit salam et s'est contenté de regarder sans rien dire l'homme faire

— Tu entends ?

Pris par un même mouvement brusque, ils ont tous les trois regardé la plaine verte au sud, bouchée par une montagne sombre, comme s'ils avaient entendu un grondement. Ils ne le savent pas encore, l'armée romaine, en guerre contre la puissante Carthage, va bientôt arriver dans la région mais du nord. Partir, s'allier ou combattre, il faudra choisir. Le collègue a rangé ses affaires :

— On part.

3

De l'eau a coulé, plus de deux mille ans se sont écoulés, des ponts et des routes en goudron se sont construits sur les eaux. RN3, diminutif alphanumérique de la Route Nationale numéro 3, la deuxième plus longue route du pays après la RN1 et ses 2335 kilomètres qui relient Alger à In Guezzam, frontière du Niger. Mais comme souvent, ce n'est pas une histoire de longueur car la RN2, qui connecte Oran à Tlemcen ne fait que 147 kilomètres. Hmada a pris une gorgée d'eau pour reprendre aussitôt de ses mains le volant de sa voiture jaune. La RN3 peut être dangereuse même si elle semble vide. 2200 kilomètres, de la Méditerranée au Tassili n-Ajjer, de Skikda plus exactement à Djanet, ou de Djanet à Skikda préfère se dire Hmada. Chronologiquement, les premières civilisations sont nées dans le Tassili n-Ajjer, au bord du grand fleuve Tafassasset il y a 10 000 ans,

encore été inventé à cette époque reculée. Un coup d'œil à la hauteur, une vingtaine de mètres, puis il est revenu à son point de départ :

— Ça semble correct.

Son collègue a posé ses outils de cuivre, touché de ses mains calleuses les pierres lisses réchauffées par le soleil d'hiver, jointées par un ingénieux système d'agrafes en bois de cèdre préalablement plongées dans du plomb liquéfié.

— Tu crois que ça va tenir ?

La femme de l'inspecteur, qui vient souvent le voir quand il a des chantiers, fait semblant d'être fâchée qu'on puisse mettre en doute le savoir-faire de son mari :

— Ce n'est pas la première fois qu'il construit des monuments.

Le collègue fait aussi semblant d'être irrité :

— On part. Faut que j'aille à Tiddis, ce n'est pas à côté.

L'inspecteur n'est pas entièrement satisfait. Il fait encore un tour et touche une à une les 60 colonnes posées tous les 6 degrés du cercle.

— Le dernier tour, avertit son collègue impatient.

— Calme-toi, lance la femme, le soleil est encore haut.

Revenu une nouvelle fois à son point de départ, l'inspecteur s'est reculé de quelques mètres pour avoir une vue d'ensemble. La construction n'a pas d'orientation, ni nord ni sud, ni est ni ouest. Elle est parfaitement circulaire.

LES DOUZE PIERRES DE MINUIT

Chawki Amari

1

Je m'appelle Izza. J'ai 22 ans. Je sais, ce n'est rien, je ne suis née qu'au XXI^e siècle et le temps est si grand.

Aujourd'hui il fait beau, même si je suis triste, profondément. Les tragédies arrivent à tout le monde, à tout âge. Je regarde mon petit jardin de Boston, cette ville américaine où je suis née, bien que mon origine soit bien loin d'ici. Je suis encore une jeune femme qui ne sait pas grand-chose de la vie, car la vie est si grande et mes mains si petites. Mais c'est comme ça que je suis devenue maçon.

2

Traversée par une rivière chargée qui se répand vers l'ouest, c'est une petite plaine délimitée par deux monts au nord et au sud, parsemés de majestueux cèdres accrochés aux rochers calcaires.

En bon inspecteur de chantier, il a fait le tour, soit 200 mètres environ selon la célèbre formule qui lie le nombre Pi au diamètre, bien que Pi n'ait pas

© Éditions Chihab, 2019.

10, avenue Brahim Gharafa, Bab El Oued, Alger.

www.chihab.com

Tél.: 021 97 54 53 / Fax: 021 97 51 91

ISBN: 978-9947-39-365-9

Dépôt légal: octobre 2019.

Achevé d'imprimer en octobre 2019

sur les presses de l'imprimerie de A. Guerfi - Batna - Alger

Medghacen, histoires secrètes

Chawki Amari

Nassira Belloula

Ameziane Ferhani

Jaoudet Gassouma

Amin Khan

Rachid Mokhtari

Thierry Perret

Mohamed Sari

Photo : Kays Djilali

CHIHAB EDITIONS

Medghacen, histoires secrètes

